الفصل الرابع

العـــرب والعالـــم

obeikandl.com

obeikandl.com

١- العروبة والإسلام

كثر الحديث فى العقدين الأخيرين عن العروبة والإسلام. وعقدت المؤتمرات، وأجريت مشاريع الأبحاث حول الموضوع، ونشرت عشرات الكتب فيه. ومازال الموضوع مطروقا وإن كان التقابل بينهما قد خف، والحوار بينهما جار، والتعاون بينهما قريب.

ومما يزيد الأمر صعوبة استحالة التمييز بين ما حدث فى التاريخ منذ كان العرب جزءا من دولة الخلافة على مدى خمسة قرون حتى الثورة العربية الكبرى، والقومية العربية والناصرية وبين العلاقة البنيوية بينهما من حيث هى فكر واختيار إيديولوجى. فالحديث عن التعارض بين العروبة والإسلام يحضر فى الذهن التاريخ. والحديث عن التماثل بين العروبة والإسلام يحضر فى الذهن الفكر والإيديولوجيا. والحقيقة أنه لاغناء لأحد المنهجين عن الآخر. فما يحدث فى التاريخ يترك آثاره فى الوعى التاريخى. وبنية الفكر تتحقق فى التاريخ كحركات سياسية.

وقد مرت عدة أفعال وردود أفعال على العروبة والإسلام أو القومية والدين فى تاريخ العرب الحديث. فبدت العروبة ضد الإسلام بمعنى العرب ضد الأتراك اثناء الثورة العربية الكبرى وأثناء الحرب العالمية الأولى بمعاونة بريطانيا ضد تركيا، ومن أجل إضعاف دولة الخلافة التى كانت تضطهد حركة القوميين العرب دفاعا عن وحدة الدولة حتى ولو كان باضطهاد القوميات، العرب والأرمن وعلى حسابهم. وهى مرحلة ساطع الحصرى ونشأة الفكر القومى العربى. وهى المرحلة التى يهاجمها الإسلاميون عادة عندما يجعلون القومية أداة لتفتيت الأمة بتأييد الاستعمار.

وفى مرحلة ثانية، بدأ استرداد الإسلام داخل العروبة، وجعل الإسلام دين العرب، والنبى العربى، نبى العرب، فالإسلام أكبر معبّر عن عبقرية العرب، "أمة

البيان ١٩٩٦/٢/٢٦.

عربية واحدة ذات رسالة خالدة". والنصارى العرب مسلمون ثقافة، والمسلمون عرب ثقافة. وهى مرحلة ميشيل عفلق.

وبعد هزيمة يونيو ـ حزيران ١٩٦٧ والتى أعتبر الإسلاميون القوميين بزعامة عبد الناصر مسؤولين عنها، بدأ الحوار القومى الإسلامى على مستوى العمل أكثر منه على مستوى النظر من أجل تنسيق الجهود لدرء مخاطر الهزيمة، ووضع الخطط العملية لمقاومة بوادر الاستسلام ومخططات الاستعمار والصهيونية بالوطن العربى. وظلت الأطر النظرية على حالها لم تتغير. وكل فريق يحاور الآخر وفى ذهنه جماهيره وقوته على الساحة. ويخرج الإسلاميون منتصرين فى الحوار. فجماهيرهم عريضة، والشارع العربى ملكهم، والقومية العربية متراجعة تخطب ود الإسلام.

والحقيقة أن حجر العثرة فى هذا الحوار مازال وسيظل لمدة طويلة من بقايا الصراع التاريخى بين العرب والترك ونشأة القومية العربية. وما زال مخلفاتها باقية: لواء الاسكندرونة الذى اقتطفته تركيا من سوريا، الحركة القومية الكردية فى شمال العراق وشرق تركيا المشتعلة، وشمال غرب إيران الراكدة، ودخول تركيا فى حلف شمال الأطلنطى، وفى تقليد الغرب والاعتراف بإسرائيل إبان المد القومى العربى، وإقامة قواعد عسكرية أمريكية على أرضها لتهديد الوطن العربى. والحقيقة أن العرب اليوم ليس غيرهم بالأمس، فالحركة الإسلامية رصيد للقومية العربية. والأتراك بالأمس، أثناء الثورة الكمالية ليسوا أتراك اليوم بعد حصول حزب الرفاه على الأغلبية فى الانتخابات الأخيرة ودخوله فى حلف مع حزب الوطن الأم. ولأول مرة فى تاريخ الإسلام الحديث، يأتى الإسلام إلى الحكم عبر صناديق الاقتراع.

ومما يمنع الحوار القومى الإسلامى، الصراع المكبوت على السلطة. فمازال التيار القومى فى الحكم، فى سوريا والعراق واليمن. ومازال القوميون العرب حاضرين فى الخليج ولبنان والأردن ومصر. وبالرغم من محاولات التحالف بين

جميع القوى الوطنية فى العالم العربى إلا إن القوميين يرون أنهم مازالوا قادرين على استمرار الحركة القومية فى الخمسينات والستينات إلى السبعينات والثمانينات والتسعينات وحتى القرن القادم. والإسلاميون يرون أن الشارع معهم، وأن الهزائم قد لحقت بالقوميين التى أدت فى النهاية إلى بزوغ القطرية تفاوض على قضية العرب الأولى، فلسطين.

ومازال فى فى الذهن العربى التوحيد بين العروبة من ناحية وبين حزب البعث العربى الاشتراكى من ناحية أخرى، وبين الإسلام والإخوان المسلمين أو الجماعات الإسلامية. ومن ثم يصعب الحوار نظرا للثأر التاريخى بين عبد الناصر والإخوان فى مصر، وبين حزب البعث والإخوان فى سوريا. وفى خضم الصراع التاريخى ينسى الفكر العربى العروبة والإسلام كفكرتين أو رؤيتين.

كما يخيل للبعض أن العروبة قد حمل لواءها نصارى الشام إحساسا منهم بأنهم عرب أولا فى محيط عربى ثانيا ومركز دائرة إسلامية ثالثا. ولكن هويتهم العروبة وليس الإسلام. والإسلام جزء من تاريخ العرب، ومرحلة فى مراحل تطورهم عبر التاريخ. أما الإسلاميون فيعتبرون أن الإسلام هويتهم، وغير محدد بعرق أو قوم، وقد جمع الأعراق والأجناس وصهرها فى بوتقة التوحيد، وأن النصارى مسلمون لأن الدين عن الله الإسلام منذ آدم عليه السلام حتى محمد عليه السلام. يؤثر النصارى الوحدة العربية بصرف النظر عن الدين، ويؤثر الإسلاميون الوحدة الإسلامية بصرف النظر عن القومية. ويتجاوز كلاهما حدود القطرية الضيقة، القوميون إلى الوطن العربى، والإسلاميون إلى الأمة الإسلامية غير المحددة باللغة أو القومية بل بالتوحيد.

وفى ذهن القوميين أن الإسلام يؤدى بالضرورة إلى دولة دينية كهنوتية قد عفى عليها الزمن. وطالما تدخل الدين فى السياسة فإنه يؤدى إلى فساد للدين والسياسة معا، محاكم تفتيش، وسيطرة رجال الدين، والنيل من الحريات العامة. لذلك ارتبطت القومية بالعلمانية، "الدين لله والوطن للجميع". وعند الإسلاميين، هذه

تجربة الغرب، فى حين أن تجربة المسلمين أن الدين حضارة وعلم وثقافة ومدنية وعمران، وأن الإسلام دين ودولة، عقيدة وشريعة، نظر وعمل، فكر وسلوك، وأن الإسلام له نظرياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية.

والحقيقة أن العروبة هى اللسان. فالقرآن عربى، والنبى عربى، والأمة عربية بهذا المعنى. ولكن الفكر يتجاوز اللغة. ويمكن التعبير عنه بعديد من اللغات. فالتوحيد يمكن التعبير عنه بالعربية والفارسية والتركية والأوردية والصينية والأوزبكية بل وباللغات الأوربية الحديثة الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والأسبانية واليونانية. كما يمكن التعبير عنه باللغات الأفريقية ولهجاتها. العروبة لغة، والإسلام ثقافة، يحملها المسلم والنصرانى واليهودى وكل من عاش فى كنف الثقافة العربية. ويحملها غير العرب من الأسيويين والأفارقة والأوربيين والأمريكيين. الإسلام نظام عام للقيم يحمله العرب وغير العرب، وتهدف إليه كل الشعوب، وتصوغه كل الثقافات.

هناك دوائر ثلاث يعيشها العربى: القطر، واللغة، والثقافة. فالكاتب مثلا قاهرى المولد، عربى اللسان، إسلامى الثقافة. لكل منا قطر يولد فيه. وهذه رابطة الوطنية، وحب الوطن من الإيمان كما هو معروف فى القول المأثور. كما كتب التوحيدى "رسالة فى الحنين إلى الأوطان". ورفع الطهطاوى شعار "فليكن هذا الوطن مكانا لسعادتنا أجمعين، نبنيه بالحرية، والفكر، والمصنع". وشكلت حركات الاستقلال الوطنى الحديثة الوجدان العربى كله.

ولكن هذا الوطن الذى فيه المولد، بعاطفة المكان والإحساس بالزمان، مفتوح الحدود على المكان المحيط. فقد أقيمت الحدود بعد هزيمة الأتراك بعد الحرب العالمية الأولى، ووعد العرب بالاستقلال إذا ما انضموا للحلفاء فى الحرب العالمية الثانية. فهى حدود مصطنعة، قامت على نموذج الدولة الوطنية القومية فى الغرب الحديث، ألمانيا، وإيطاليا، وفرنسا بالرغم من اختلاف الوضع. ففى حالة الغرب اللغة مختلفة. وفى حالة العرب، اللغة والثقافة مشتركة.

لقد تغير العالم. وفى نفس الوقت الذى تظهر فيه القومية عاملا للتفكيك فى أوربا الشرقية، تشيكو سلوفاكيا، يوغوسلافيا، وفى الاتحاد السوفيتى، شيشينيا، قوقازيا، أذربيجان... الخ تبدو فيه القومية كعامل توحيد فى الوطن العربى بالرغم مما أصاب الحركة القومية من مخاسر بعد اختفاء عبد الناصر، والحرب العراقية الإيرانية، والحرب العراقية الخليجية، والتوترات بين سوريا والعراق، ومصر والسودان، والمغرب والجزائر، والسعودية واليمن، وقطر والبحرين. وتظل الخطورة فى الصدام المفتعل بين العرب وإيران أو التقارب بين العرب والأتراك عبر إسرائيل أو التوتر بين العرب والأفارقة فى السنغال أو تشاد أو مالى أو جنوب السودان.

وكما أن الوطن فى محيط عربى، فكذلك العرب فى محيط إسلامى، أفريقى أسيوى. فالإسلام ظهير العرب ورصيدهم التاريخى. وقد كانت الثورة الإسلامية فى إيران فى عامها الأول رصيداً للثورة العربية وتجاوزاً لطموحاتها بالنسبة لفلسطين ولمقاومة الاستعمار ولتوحيد الأمة. وقد كان عبد الناصر خير معين لها ولكل فصائلها إبان حكم الشاه. وتسمية الخليج، وقضية الجزر كل ذلك يمكن تسويته بين دول الجوار الجغرافى والتاريخ المشترك كما ظهر أخيرا فى الحوار العربى الإيرانى فى قطر العام الماضى الذى أجراه مركز دراسات الوحدة العربية.

والصحوة الإسلامية فى تركيا، وبداية نقد الثورة الكمالية فيها، ومثلها واختياراتها الغربية، وتوتر علاقاتها بالغرب بسبب الاقتصاد والأحلاف، يجعلها قريبة من العرب مباشرة وليس عبر إسرائيل أو أمريكا فى المشروع الشرق أوسطى الجديد.

والهند، وباكستان، وأفغانستان، وأواسط آسيا حتى الصين امتداد للثقافة العربية، لغة وتاريخاً. يعشق المسلمون هناك العرب والعروبة، ويتبركون بهم لأنهم بجوار مكة والمدينة، والأزهر والقيروان والزيتونة، ولأنهم الذين حملوا الرسالة لهم.

والملايو، واندونيسيا، والفلبين، وسنغافورة، تجمع صناعى ضخم، وسكانه مسلمون مازال العرب يعيشون فى ذاكرتهم الحية، لغة ودينا وثقافة وأساليب حياة وعادات وتقاليد.

وفى أفريقيا وحد العرب لغاتهم فى السواحيلى، ووحدوا قبائلهم، وطوروا مجتمعاتهم، وأقاموا إمبراطوريتهم فى غانا بفضل الرسالة التى حملها العرب لهم بالرغم من لعب الاستعمار على تناقض وهمى بين العروبة والزنجية فى جنوب السودان، ومالى، وتشاد، ونيجيريا، والسنغال.

وتبدو العروبة فى مسلمى أوربا وأمريكا الجدد خلال موسم الحج، وتعلم العربية، واللباس العربى، والعادات العربية، واللغة العربية، والإسلام الذى حمله العرب.

العرب إذن لا يكونون قومية منغلقة على نفسها بل هم ممتدون إلى الأوطان فى الداخل وإلى المسلمين فى الخارج. هم كالسمك فى الماء فى البحيرات والخلجان، وهى الأوطان، وفى المحيطات الواسعة، وهى الأمة الإسلامية. مصالح العرب أوسع من مصالح الأقطار ومتشابكة مع مصالح الأمة الإسلامية فى آسيا وأفريقيا، وفى أوربا وأمريكا.

وفى الوقت الذى يعاد فيه تشكيل نظام العالم من جديد يحتاج العرب إلى رؤية جديدة لأنفسهم ولغيرهم، لماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، ولمصالحهم على الأمد الطويل. فليس الغرب أو إسرائيل هما الحليفان الوحيدان، إذ يصعب تحول أعداء الأمس إلى أصدقاء اليوم بين عشية وضحاها وفى وقت يكون العرب فيه فى أضعف حالاتهم.

٢- العرب وإيران

الصراحة واجبة حتى ولو كانت فى أكثر الأمور حساسية، وفى أثقلها على النفس. يتجنبها المثقفون، ويتحرج منها القادة، ويصمت عنها الجميع بالرغم من التفكير المستمر فيها. وتدريجيا تتحول إلى محرم ثقافى يُضاف إلى باقى المحرمات مثل الدين والسلطة والجنس، هذا الثالوث المقدس - المحرم فى الثقافة العربية. وإن من أمانة المثقف العربى أن يكون ما فى القلب على اللسان، وأن يتحول التفكير الصامت إلى تفكير علنى، فالساكت عن الحق شيطان أخرس، وبدلا من أن تدهمنا الأحداث أو أن نعتمد فى رؤيتنا لواقعنا ولمصالحنا على تحليلات الغرب فنفهم حاضرنا ومستقبلنا عن طريق فهم الآخرين ورؤيتهم له، وهو فهم يعبر عن مصالحهم، فنضر أنفسنا بأيدينا، ونلقى بأنفسنا إلى التهلكة.

وموضوع العرب وإيران أكثر حساسية من موضوعات العرب والأتراك، العرب والغرب، العرب وأفريقيا، العرب وآسيا، العرب وإسرائيل. مع أن إيران من دول الجوار. وقد يشعر بها الخليج لغة وثقافة وسكانا قدر شعوره بالوطن العربى فى المغرب الأقصى. يفكر فيه الحكام بإعتباره مصدر الخطر الأول على أنظمة الحكم. ويصمت عنه المثقفون إلا فيما ندر.

وإيران هى من دول الجوار التاريخى والجغرافى للعرب قبل الإسلام وبعده. تضم الضفة الشرقية للخليج والجناح الشرقى للعراق. وهى الطريق البرى إلى الهند وأفغانستان وباكستان وتركيا وأواسط آسيا. تعامل العرب معها قبل الإسلام تجاريا وثقافيا وسكانيا. كان بعضهم من الصحابة مثل سلمان الفارسى. ويذكر علماء القرآن بعض الألفاظ الفارسية التى تم تعريبها مثل سندس وإستبرق. ويذكر بعض المتكلمين أنها مع العربية لغة أهل الجنة.

البيان ١٩٩٦/٣/١١ (لم يُنشر).

وتروى أحاديث كثيرة فى فضل فارس مثل "العلم فى فارس"، وأخرى تفيد أنه لو كان العلم فى الثريا لاقتطفه رجال من أهل فارس. وعلى مدى التراث الإسلامى عبر العصور امتدت الثقافة الفارسية بعد ترجمة أمهات كتبها السياسية إلى الثقافة الإسلامية. وكانت ذروتها عند مسكويه الذى ترجم "جاويد نامه". وأصبحت الثقافة الفارسية رافدا أساسيا مع الثقافة اليونانية، يشكلان معا الثقافة الوافدة.

بل يرجع البعض التصوف الإسلامى إلى مصدر فارسى، والتحليلات الأخلاقية الأولى أيضا إلى مصادر فارسية. وكان المحدثون الكبار من فارس، البخارى، ومسلم، وابن ماجة، والترمذى، وأبو داود. وكان حملة العلم الرياضى والطبيعى من فارس، البيرونى، والخوارزمى، والطوسى، والكاشانى. وكان الفلاسفة من فارس مثل ابن سينا والشيرازى وناصر خسرو. ونصف مذاهب الأمة من فارس مثل الشيعة. وكانت اللغة الفارسية مع اللغة العربية لغة التأليف والعلم. كتب بها ابن سينا والغزالى، ونظم بها الصوفية الملاحم مثل شهنامة الفردوسى. ولها أثر كبير مع التركية فى لغات أواسط وجنوب غرب آسيا. وكانت دعامة الدولة العباسية على مدى خمسة قرون. لقد حملت إيران الإسلام بعد أن اعتنقته، ونشرته فى أواسط آسيا. وكانت اللغة العربية فيها لغة العلم والثقافة بالإضافة إلى لغة الدين. ومازالت مركزا نشطا لنشر الثقافة العربية الإسلامية.

وفى الماضى القريب، أصيبت إيران كما أصيب الوطن العربى قبل الثورات العربية الأخيرة بالهيمنة الغربية، التبعية للغرب عامة وللولايات المتحدة خاصة فى إيران أيام الشاه، وبالاحتلال المباشر لكافة أرجاء الوطن العربى من القوى الاستعمارية الغربية. وبعد الثورات العربية الأخيرة بدأ الوطن العربى يدافع عن التعارض بين إيران والعرب. وانتهج الشاه سياسة القومية الإيرانية، وعاد إلى الأصول الإيرانية الأولى السابقة على الإسلام فى مواجهة مخاطر القومية العربية كحركة تحرر وطنى. ودخلت إيران فى حلف غربى مع باكستان وتركيا ضد

القومية العربية. وأيد الشاه اكراد العراق، وغذى روح الانفصال لإضعاف العراق. والتقت القومية العربية مع الحركة الوطنية الإيرانية. واعترفت بمصدق وبتأميم البترول الإيرانى فى ١٩٥٤. واستمرت الثورة العربية تؤيد المعارضة الإيرانية، الوطنية والإسلامية، ضد الشاه. وكان عبد الناصر يسلح حركتى مجاهدى خلق وفدائى خلق. وكان على صلة بالخمينى كرمز للمعارضة الوطنية ضد نظام الشاه.

ولما انتصرت الحركة الوطنية الإيرانية على نظام الشاه، وبقيادة الثورة الإسلامية وتحت شعاراتها وبقياداتها أعادت الروح الثورية إلى الوطن العربى فى ١٩٧٩ بعد أن اعترف بإسرائيل، وهادن الغرب، العدو التقليدى، ودخل فى اقتصاديات السوق، وخصخص الاقتصاد. ورفعت الثورة الإسلامية فى إيران منذ يومها الأول شعار تحرير فلسطين متجاوزة شعار العرب "إزالة آثار العدوان"، وكل فلسطين منذ ١٩٤٨ وليس فقط منذ ١٩٦٧. واعترفت بمنظمة التحرير الفلسطينية، وأغلقت سفارة إسرائيل التى أقامها الشاه، وسلمتها لمنظمة التحرير. وأصبحت الثورة الإسلامية فى إيران نموذجا لثورة جديدة بعد نماذج الثورة الفرنسية، والثورة الأمريكية، والثورة الروسية.

ثم بدأت الثورة الإسلامية فى إيران لظروف داخلية وخارجية، تفتت الوحدة الوطنية بين الإسلاميين والعلمانيين، المحافظة التقليدية للمؤسسة الدينية، تغريب العلمانيين، النيل من خصوم الثورة قبل الشاه وبعده مما اضطر إلى تجمع المعارضة فى الخارج، وتربّص الهيمنة الأمريكية بها، والعدوان العراقى عليها وهى فى أوج صراعها مع الولايات المتحدة الأمريكية فى حرب استمرت ثمان سنوات بلا هدف أو غاية. خشيت الأنظمة العربية من المد الإسلامى الداخلى فى الوطن العربى وأثر الخارجى عليه. فبدأت الثورة تنحو نحوا محافظا فى الداخل، ويتداخل فيها الإسلام الأممى مع القومية الإيرانية.

وبدأ العرب يخشون الثورة الإسلامية فى إيران أحيانا على حق، وأحيانا أخرى عن توهم. فاحتلال إيران الجزر الثلاث فى مدخل الخليج جعل العرب

يعتقدون أن إيران قوة محلية، لها أطماع توسعية فى المنطقة العربية خاصة فى الخليج. كما أن استمرارها فى الحرب مع العراق لإسقاط النظام العراقى تدخل فى شؤون العرب خاصة بعد أن استعادت إيران ما احتله العراق من أراضيها ثم تحولت إلى دولة محتلة لأراضى الغير فى شبه جزيرة الفاو. لم تعد إيران ثورة إسلامية أممية بل أصبحت دولة قومية كما كان الحال أيام الشاه، تهدف إلى التوسع والانتشار، أرضا ونفوذا. وأصبحت تؤيد الانقلابات وتشجعها ضد النظم السائدة فى الوطن العربى، وتمدها بالسلاح، وتؤيدها معنويا. فأصبحت خطرا على الأنظمة العربية فى وقت ضعف أيديولوجيات التحديث العلمانية، الليبرالية والقومية والماركسية بعد هزيمة ١٩٦٧ ثم التحول عن المسار القومى منذ الاعتراف بإسرائيل وعقد معاهدات الصلح معها قبل استرداد حقوق شعب فلسطين. وتزداد الخطورة لوجود كثرة من الشيعة فى جنوب العراق وفى الخليج وكأن المذهب يجُبّ الوطن، وأن الانتماء للمذهب يسبق الولاء للوطن. وكثيرا ما تصبح إيران مسؤولة عن كل قلاقل اجتماعية فى الوطن العربى، فى الخليج وفى لبنان بل وفى مصر والمغرب العربى، وفى السودان واليمن، وفى شبه الجزيرة العربية فى موسم الحج بإعلان البراءة، وفى كل مناسبة بالتدخل فى شؤون غيرها. وأخيرا، فهى مصدر الإرهاب فى كل مكان، قتل الأبرياء، وترويع الناس.

والتحدى أمام العرب هو مقارنة هاتين الصورتين الإيجابية والسلبية لإيران فى الماضى القريب، وفهم الظروف التاريخية التى ولّدت كل من هاتين الصورتين، والاعتراف بالحق فى غمرة الأحداث والأهواء السياسية. فلا ريب أن الثورة الإسلامية فى إيران منذ اندلاعها ثم انتصارها فى فبراير ١٩٧٩ إنما كانت تعبيرا عن روح الناصرية، مقاومة الاستعمار والصهيونية، والوقوف ضد المعسكرات والأحلاف ومناطق النفوذ الغربى. بل إنها نوع جديد من الناصرية الإسلامية أو الإسلام الناصرى، تتجاوز أزمة الصراع بين الإخوان والثورة فى ١٩٥٤، هذا الصراع الذى مازال دائراً حتى الآن فى صورة الصراع بين الجماعات الإسلامية ونظم الحكم التى ورثت ثورة يوليو ١٩٥٢ نظراً وانقلبت عليها عملاً. فالخمينى

ناصر جديد يتوسطهما مصدّق. وناصر خميني قديم يتوسطهما سيد قطب. كما أن المقاومة المسلحة فى جنوب لبنان وفى فلسطين، مقاومة إسلامية على نمط الثورة الإسلامية التى تجسدت فى إيران فى ١٩٧٩. كما أن أثر إيران على أفغانستان، وباكستان وأواسط آسيا والصراعات بين القوميات، ووقوفها بجانب البوسنة والهرسك والشيشان يجعلها قوة ومركز ثقف فى العالم الإسلامى، والعرب جزء منه. وهى حاضرة فى الخليج جغرافيا، وتاريخياً، سكانيا ولغويا، سياسيا وثقافيا. كما أنها قوة تضاف إلى قوة العرب، وسلاحها النووى إن وُجد ظهير للعرب ضد السلاح النووى الإسرائيلى. ومازالت صامدة أمام الأطماع الغربية والوجود العسكرى الأمريكى فى المنطقة العربية شرقا وغربا ووسطا.

وقد بدأ الحوار العربى الإيرانى أخيرا فى جامعة قطر العام الماضى بمبادرة من مركز دراسات الوحدة العربية. وكان إنجازا ضخما لصالح العلاقات العربية الإيرانية. وكم تبددت الأوهام والتخوفات والصور النمطية الإعلامية المتبالدة بين الطرفين فى الأذهان. وإذا كان الحوار يتم بين العرب وإسرائيل، وكان التطبيع على قدم وساق سعيا وهرولة فالأولى أن يستم الحوار العربى الايرانى، وتطبيع العلاقات العربية الإيرانية بعد تطبيع العلاقات العربية العربية وقبل تطبيع العلاقات العربية الإسرائيلية.

فايران، مثل تركيا، فى النهاية من دول الوار الجغرافى والاستمرار التاريخى، والتواصل الثقافى، والتشابك والتآزر فى المصالح. فالخليج عربى من ضفته الغربية وإيرانى من ضفته الشرقية وإسلامى فى ضفتيه وليس أمريكيا. والمصالح مشتركة بين الطرفين كما كانت مشتركة عبر التاريخ. والعرب وتركيا وإيران يمثلون أكثر من ثلاثمائة مليون مسلم، يعادلون سكان أوربا أو أمريكا أو روسيا أو اليابان. وهم قلب العالم الإسلامى الذى يبلغ المليار نسمة، مثل تعداد الصين. وفى عصر توازن المصالح بعد توازن القوى تصبح إيران وتركيا مع

العرب قوة مركزية في المنطقة بدلا من أن تتخطاها أوربا ممتدة إلى آسيا في الحوار الأوربي الأسيوى الأخير. تحتاج المنطقة إلى خيال سياسي يتجاوز به العرب رواسب الماضي وأزمة الحاضر، ويجاهدون به النفس وأهواء البشر. ومن أجدر من المثف الوطني أن يطرح رواه على وطنه، يجتهد رأيه دون أن يتهم بالخيانة للعرب والعمالة لإيران؟ من السهل زرع الأحقاد، ولكن من الصعب نزعها. من السهل صب الزيت على النار، ولكن من الصعب إخماد الحريق. من السهل إيقاظ الفتنة ولكن من الصعب إخمادها.

٣. العرب والأتراك

فى وقت مراجعة العرب لأيديولوجياتهم القومية والإسلامية واالليبرالية والماركسية، وهى الأيديولوجيات الأربعة التى تنتظم الحياة العربية المعاصرة والتى لها وجود فعلى فى الشارع العربى وفى ثقافة الجماهير تتم أيضا مراجعتهم لدول الجوار، ليس فقط أوربا فى شمال وغرب بلاد العرب بل أيضا تركيا فى شمال غرب بلاد العرب وإيران فى شرق بلاد العرب.

فعندما يقال تركيا، أو الترك أو الأتراك فإن اللفظ يثير فى الذهن عدة مشاعر متضاربة بين السلب والإيجاب، بل السلب أكثر من الإيجاب. قد يكون السلب على السطح ويرقد الإيجاب فى الإعماق. قد يكون السلب فى تاريخ العرب الحديث فى هذا القرن فى حين أن الإيجاب يتجاوز الألف عام فى الوجدان القومى العربى. السلب فى الماضى القريب، والإيجاب فى الماضى البعيد. السلب فى الذاكرة الحية، والإيجاب فى الذاكرة المختزنة.

فعند الإسلاميين تعنى تركيا دولة الخلافة القديمة التى استطاعت الدفاع عن الأمة الإسلامية المترامية الطراف من الصين شرقا حتى المغرب غربا ضد أطماع الدول الكبرى الغربية والشرقية على حد سواء. حمت شمال أفريقيا ضد الاستعمار الفرنسى، وأواسط آسيا ضد الاستعمار الروسى وحاربته فى القرم وفى اليمن ضد الاستعمار البريطانى. وانتشر الإسلام من آسيا إلى أوربا عبرها حتى وصل إلى أبواب فيينا. والعداء لتركيا لا يعرفه المغرب الأقصى ولا تعرفه أواسط آسيا، وربما لا تعرفه مصر التى ارتبطت معظم أحزابها الوطنية مثل الحزب الوطنى وحزب مصر الفتاة بتركيا. فالوطنية من الإسلام، والإسلام دعامة الوطنية. ولكن خطأ تركيا الحديثة هى الثورة الكمالية وإلغاء الخلافة بدلا من اصلاحها فضاعت وحدة الأمة، وأصبحت فريسة للاستعمار الغربى والشرقى، وقلدت الغرب،

البيان ١٩٩٦/٣/٤ (لم يُنشر).

وانحازت إليه بالأحلاف والقواعد والسياسات، وعادت العرب واعترفت باسرائيل، وجعلت العلمانية ضد الإسلام، وقطعت بين ماضى تركيا وحاضرها. فعند الإسلاميين كان الإيجاب فى الماضى والسلب فى الحاضر.

وعند الليبراليين، تركيا نموذج الدولة الحرة، المتعددة الأحزاب، وهى تتمتع بقدر كبير من الحرية لها دستور ونظام برلمانى، تجلى فى الانتخابات الأخيرة بلا تزييف أو تدخل من الحزب الحاكم. ولم يحصل أحد من الأحزاب المتنافسة على ٩٩,٩٪ من الأصوات كما هو الحال فى الانتخابات العربية. لقد أحسنت تركيا صنعا بأخذها النموذج الغربى فى الحرية والديموقراطية والحداثة والاقتصاد الحر، وبتخليها عما يعوق تقديمها الحاضر من رواسب. ويا ليت العرب يكونون مثل الأتراك ويحذون حذوهم، وإحداث القطيعة مع الماضى والدخول فى العصر من أوسع الأبواب!

وعند القوميين، لقد أخطأت تركيا بعد أن سادتها القومية الطورانية، وعمتها أيديولوجية "تركيا الفتاة" وحزب الاتحاد والترقى باضطهادها حركة القوميين العرب، وشنق قادتها فى دمشق فى بداية العقد الثانى من هذا القرن. واقتطعت لواء الاسكندرونة من سوريا وضمته إلى نفسها. واعترفت بإسرائيل، وتحالفت مع الغرب والعرب فى أوج نضالهم من أجل الاستقلال الوطنى. واقتصادها رأسمالى منهار، والعرب فى أوج بناء الاشتراكية العربية وخططهم للتنمية. وانضمت إلى المعسكر الغربى فى وقت يكتشف فيه العرب الشرق، ويصيغون مبادئ باندونج.

وعند الماركسيين، لقد أحسنت تركيا صنعا بقضائها على الخلافة، ودخولها عصر الحداثة، وبدايتها عصر التصنيع، ولكنها أخطأت فى تحالفها مع الغرب، ودخولها فى الاقتصاد الرأسمالى. ولا أممية إلا الأممية الاشتراكية التى تتعارض مع النزعات القومية الانفصالية. الفقر والبطالة والهجرة والتخلف كل ذلك من نتائج النظام الرأسمالى الذى تبنته تركيا. ثم أصبحت تركيا عضوا فى حلف

الأطلنطى المناوئ للاتحاد السوفيتى. فهى جزء من المعسكر الغربى المناهض للاتحاد السوفيتى.

تتراوح صورة الأتراك إذن فى الذهن العربى بين الإيجاب والسلب بصرف النظر عن الإيديولوجيات العربية الأربعة. فهى عند الإسلاميين موطن الخلافة، وأداة انتشار الإسلام فى أوربا. بدأت تتجاوز العصر الكمالى الحديث بدليل نتائج الانتخابات الأخيرة التى حصل فيها الحزب الإسلامى على الأغلبية المطلقة بالنسبة لباقى الأحزاب، والأغلبية النسبية بالنسبة لمقاعد البرلمان. فتاريخ تركيا الاسلامى الطويل قادر على وضع الفترة الكمالية فى حجمها الصحيح. وألف عام من تاريخ الإسلام قادر على احتواء ثلاثة أرباع قرن من العلمانية. وهى نموذج للحكم الديموقراطى الدستورى. تتجاوز ما يعرفه العرب من نظم ملكية وراثية أو عسكرية انقلابية كما يتصورها الليبراليون. وهى قلعة صناعية حديثة ونموذجا للتقدم العلمى. يستورد العرب صناعاتها الثقيلة والخفيفة، ويتمتعون بقنواتها الفضائية فى السماء وبعرباتها وبقطع غيارها على الأرض. ويرجع لها الفضل أنها حافظت على فلسطين عندما رفض السلطان عبد الحميد بيعها أو تأجيرها لهرتزل لاقامة الدولة الصهيونية عليها.

ومع ذلك، فتركيا أيضا وعلى مستوى التاريخ الحديث هى التى بدأت بتقطيع دولة الخلافة بعد نشأة الأحزاب العلمانية فيها والداعية إلى القومية الطورانية وكأن الأمة الإسلامية المترامية الأطراف أصبحت عبئا ثقيلا علها. وكيف يستطيع "الرجل المريض" الدفاع عن نفسه أو عن أهله؟ فهى التى بدأت النعرة القومية ثم بدأت باضطهاد القوميات الأخرى التى تكوّن دولة الخلافة خاصة العرب والأرمن. ومذابح القوميين معروفة فى التاريخ. وإن كان ثأر العرب قد انتهى بمعاهدة سايكس ـ بيكو وإقامة الدول العربية المستقلة بتأييد من بريطانيا إن ساعدها العرب فى الحرب العالمية الأولى ضد تركيا وألمانيا فإن ثأر الأرمن مازال قائما بالرغم من قيام جمهورية أرمينيا فى شرق تركيا.

بل إن تركيا هي التي اقتطعت لواء الاسكندرونة من سوريا وضمته إلى نفسها فخلقت كشمير أخرى بين العرب والأتراك ومازالت تطمع في مياه دجلة والفرات، وتقيم السدود، وترفض اقتسام المياه مع سوريا والعراق. ومازالت تقاتل الأكراد على أرض العراق. وأطماعها في الأراضي والثروات العربية لا تتوقف.

كما أنها دخلت في أحلاف مع الغرب منذ حلف بغداد، وحلف جنوب شرق آسيا حتى حلف الأطلنطي لمحاصرة العرب شمالا كما تحاصرهم إيران شرقا. يؤيدها الغرب في حربها ضد الأكراد، ويؤيد الأكراد في شمال العراق، ويدعوهم إلى الانفصال تقطيعا للعراق. ومن القواعد العسكرية الأمريكية على أرضها انطلق العدوان على العراق في حرب الخليج الثانية. ومازالت صورة التركي في الذهن العربي صورة المتسلط المتعصب الجاهل المستغل الدموي الذي يملأ سجونه بالأحرار. التركي بيده السوط، وفوق رأسه الطربوش، يستعلي ويستكبر، حاكم لامحكوم. وهي نفس الصورة التي رسمها له الغرب في العصر الحديث حتى أصبح تعبير "رأس التركي" معادلا للجهل والتعصب والتسلط والاستعباد.

واعترفت تركيا بإسرائيل، وأقامت معها العلاقات السياسية والاقتصادية. وكونت معها محورا يلهب ظهر العرب، ويحقق أهداف الاستعمار. فالإسلام عدو لهما. وهما عدوان له. وصداقة تركيا لإسرائيل تثبت تعصب العرب لجنسهم، وقبول الإسلام لإسرائيل بما في ذلك احتلال القدس. فأصبحت تركيا وإسرائيل في ذهن العرب قرينين.

وفي إطار مراجعة النفس، وتغير موازين القوى، وبحث العرب عن استراتيجية عربية جديدة يستأنفون من خلالها تاريخهم النضالي الطويل وتحميهم من الوقوع في الأحلاف الجديدة المناهضة لهم مثل المتوسطية والشرق أوسطية فإنه يمكن الاعتماد على المخزون النفسي الإيجابي في العمق بالنسبة للأتراك من أجل وضع العرب من جديد في مسار التاريخ بدلاً من الحزن على الماضي، وعصر القومية العربية الذي ولّى، وغياب البديل عن أمريكا وإسرائيل.

فالأتراك هم فى النهاية من دول الجوار مثل إيران. وهم الظهير العربى وامتداده الطبيعى فى آسيا شمالا كما أن الملايو وأندونيسيا والجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى هى الظهير العربى شرقا. فالقومية العربية ليست مذهبا مغلقا على نفسه محدوداً بحدود العرب كعرق بل هى ثقافة وحضارة ولغة وتراث مشترك بين العرب، وغير العرب، مفتوحة على الأقطار وخصوصياتها من الداخل ومفتوحة على الأمة الإسلامية وشمولها من الخارج. فالعرب هم حملة الإسلام لآسيا وأفريقيا. واللغة العربية فى آسيا، لغة القرآن، يتحدث بها المسلمون، ويعبرون بها عن ولائهم الثقافى والحضارى للدين الذى جاء للعرب، وحمله العرب إلى كل الناس شرقا وغربا. تركيا هى المجال الحيوى للعرب، ومناطق إشعاع الثقافة العربية. وكما تعرب المغرب العربى مع الإسلام فإن العروبة تظل محمولة عبر الإسلام إلى آسيا، شرقا إلى إيران وشمالا إلى تركيا.

وبين العرب والأتراك تاريخ مشترك، حمل العرب الإسلام إلى تركمانستان فى أواسط آسيا ثم حمل الترك الإسلام إلى أناضوليا فورثوا بيزنطة والمسيحية الشرقية. فتاريخ العرب الحديث جزء من تاريخ تركيا، وتاريخ تركيا جزء من تاريخ الإسلام الذى حمله العرب. ومحمد على، مؤسس دولة مصر الحديثة ألبانى من دول الجوار التركى. وإبراهيم باشا ابنه حمل لواء العروبة فى مصر والشام. وعرف قدر العرب فى اللغة والثقافة والفتح. وقد شيد الأتراك الثغور، وأقاموا الحصون، وأنشأوا القلاع دفاعا عن بلاد العرب ضد الاستعمار الغربى والشرقى. كما ساهمت تركيا بثقافتها وعلمها فى الحفاظ على التراث الإسلامى العربى، وفى إقامة المطابع العربية (الجوائب)، وفى إنشاء الجرائد العربية. كما ناضل المفكرون الأحرار العرب مثل أحمد فارس الشدياق والكواكبى والأفغانى والضباط العرب مثل عزيز المصرى والقادة العرب مثل مصطفى كامل داخل تركيا ومعها ضد التغلغل الغربى فى أمور الأمة.

واليوم تكتشف تركيا أهمية الإسلام، ويتغلب الماضى البعيد، ويتجاوز الماضى القريب. وتبدأ حركة نقد للعلمانية والثورة الكمالية. كما يبدأ التقارب مع العرب. وتكتشف تركيا تواصلها التاريخى بعد الانقطاع الذى أحدثه فى مسارها التاريخى مصطفى كمال. وتعود تركيا فى مركز القلب كما كانت عبر تاريخها الطويل مركزا للأمة الإسلامية مع مصر قلب العروبة، والملايو وأندونيسيا والجمهوريات الإسلامية فى أواسط آسيا حتى تتعدد مراكز الإبداع فى الأمة.

وتدرك تركيا كما أدرك العرب من قبل وهم فى مرحلة التحرر الوطنى تعارض المصالح مع الغرب. وتقوى معاداة الغرب فى تركيا وعند العرب. كما تدرك تركيا، بالرغم من مشاريع السلام، خطورة إسرائيل فى قلب العالم العربى الإسلامى كما يدركها العرب. ويمكن للعرب والأتراك تكوين محور مباشر ثقافى وسياسى واقتصادى دون المرور بإسرائيل والغرب الأوربى والأمريكى.

إن تركيا مازالت أقرب إلى العرب من إسرائيل وأمريكا. ويستطيع العرب معها تنمية الموارد، والتصنيع، وتحديث المجتمع، والتكامل الاقتصادى نظراً للجوار الجغرافى والتواصل التاريخى والتراث الحضارى المشترك. أليس من حق العرب وضع استراتيجية مستقلة لهم تعبر عن مصالحهم فى عالم متغير؟ ولماذا يُخطط للعرب دورهم فى التاريخ ويُحدد مسارهم فيه دون أن يقوموا بذلك هم أنفسهم لهم ولغيرهم؟ هذا هو السؤال.

٤- العرب واسرائيل (العقول والسواعد والثروات)

المنطقة العربية منذ فجر التاريخ حبلى بالأحلام أو بلغتنا المعاصرة بالمشاريع الكبرى، وهى نفس الأحلام من حيث المضمون وإن تغيرت من حيث الشكل. فمنذ حضارات الشرق الأوسط القديمة بدأ حلم الوحدة والنهضة والعمران فى حضارات مصر وبابل وآشور، على ضفاف النيل وما بين النهرين. كما بدأ فى شبه الجزيرة العربية، شمالاً فى بلاد كنعان، فلسطين وجنوباً فى اليمن، وشرقاً فى عمان والبحرين، وغرباً فى منطقة الحجاز.

وفى هذه المنطقة ظهرت الأديان لتواكب النهضات الكبرى وحضارات المنطقة. وتوالى الأنبياء، نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم جميعاً الصلاة والسلام تأكيدا على الصلة بين الدين من ناحية والحضارة والعمران من ناحية أخرى. وبفضل الدين والحضارة تحولت شعوب المنطقة إلى دول عظمى وإمبراطوريات قديمة تعادل تاريخ الإنسانية القديم قبل أن يتحول المسار الحضارى من الشرق إلى الغرب، وتوحد أوروبا بين تاريخ الغرب وتاريخ العالم.

ومن أشكال هذه الأحلام والمشاريع الحضارية الكبرى، الحلم العربى المعاصر، حلم هذا الجيل فى الخمسينات والستينات الذى تم إجهاضه فى السبعينات والثمانينات، وما زلنا نبحث عن بديل له فى التسعينات وفى العقد الأول من القرن القادم، وهو الحلم الذى أصبح شعاره فى مصر والشام: الحرية والاشتراكية والوحدة.

وحول هذا الحلم وبفضله قامت حركات الاستقلال الوطنى وبناء الدولة الوطنية المستقلة ونظمها الاجتماعية الحديثة ونهضتها العمرانية وخطط تنميتها الزراعية والصناعية والبشرية. وتحول العرب إلى قطب جديد فى نظام العالم فى

البيان ١٩٩٦/٩/٩.

عصر الاستقطاب، وأصبحوا قلب العالم الثالث ودول عدم الانحياز وحلقة الوصل بين شعوب آسيا وأفريقيا خاصة وأمريكا اللاتينية عامة.

ومنذ إجهاض هذا الحلم صعب إيجاد حلم بديل. فقد تحول التخطيط الاقتصادى إلى اقتصاد السوق. وتحولت الاشتراكية العربية إلى جزء من الاقتصاد الدولى. وتحولت أحلام الوحدة إلى أحلام أصغر فى لجان التعاون أو تقوية الدولة القطرية. وتقلصت الحرية لحساب التيارات المحافظة التقليدية التى تغلب الاتباع على الإبداع، والتقليد على الاجتهاد، والنقل على العقل، والطاعة على النقد.

وفى غياب الحلم العربى البديل نشأ حلم اسرائيل الكبرى فى نهاية عصر الاستقطاب وبداية نظام جديد للعالم أحادى القطب، وبدأت الموجات الثانية للهجرات اليهودية من الاتحاد السوفييتى وهو على وشك الانهيار.

وآن وقت الحصاد منذ البذور الأولى فى مؤتمر بازل، المؤتمر الصهيونى الأول فى ١٨٩٧، والهجرات اليهودية الأولى فى العقد الأول من هذا القرن إلى فلسطين إلى وعد بلفور فى ١٩١٧، وإنشاء الدولة اليهودية فى ١٩٤٨ حتى بداية التوسع الجديد فى حروب ١٩٥٦ وعدوان ١٩٦٧، واتفاقيات كامب دافيد فى ١٩٧٨ ثم اتفاقيات السلام منذ ١٩٧٩ فى مصر، والأردن فى ١٩٩٥. والآن تتم صياغة حلم جديد بعد أن ظهرت صعوبة تحقيق حلم اسرائيل الكبرى بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣، والانتفاضة الفلسطينية منذ ١٩٨٨، والمقاومة اللبنانية فى الجنوب. فقد تنوعت أشكال الهيمنة من الأرض إلى الثروات ومن المصالح إلى العقول. ويتجلى هذا الحلم على استحياء وأحياناً على الملأ فى صيغة العقول والسواعد والثروات: العقل الاسرائيلى والعمالة العربية والثروة النفطية، لخلق شرق أوسط جديد تصبح فيه إسرائيل بمثابة العقل المدبر، والعرب بمثابة الجسم المستهلك. إسرائيل هى الروح الذى يسرى فى البدن العربى فيحركه ويولد طاقاته ويستنفد موارده.

ومن هنا أتت أهمية الإسراع فى اتفاقيات السلام، ومظاهر التطبيع والتبادل الاقتصادى والثقافى، وتأسيس بنك لتنمية الشرق الأوسط من أجل تحقيق هذا الحلم،

وبتحقيقه تحل أزمة التخلف العربى، والعمالة العربية الزائدة فى فلسطين أولاً، واستثمار الثروات العربية فى مشاريع السلام بدلاً من إنفاقها فى التسليح. والأولوية للاقتصاد على السياسة، والتبعية على الاستقلال، وللتعاون على الصراع، وللسلام على المقاومة، وللخبز على الحرية.

وكما تكسر حلم إسرائيل الكبرى منذ حرب اكتوبر ١٩٧٣ والانتفاضة الفلسطينية والمقاومة فى الجنوب ومقاومة التطبيع، كذلك قد ينكسر هذا الحلم الصهيونى الجديد "العقول والسواعد والثروات" على أسس هذا الحلم فى الداخل وعلى مقاومته فى الخارج.

فالعقل الاسرائيلى ليس مجرد أداة للتفكير والتخطيط بل يقوم على وجدان عنصرى. فهو عقل متميز يرث عبقرية الغرب والشرق على حد سواء. ويستأنف النظرية العنصرية التى عبرت عن ذروة انتصار الغرب فى القرن التاسع عشر وتفوقه العلمى والصناعى والمادى والعسكرى. هو عقل منغلق على ذاته، يرفض التعامل مع الآخر أو حتى الاعتراف بوجوده. عقل سرى يعمل فى الداخل ضد الخارج، وكما وضح فى الصهيونية والماسونية. هو عقل بيولوجى يقوم على نقاء الدم والحفاظ على السلالة. ولا غرو فقد نشأت الصهيونية السياسية فى القرن الماضى من خلال الداروينية ونظرية التطور وخلق الأحياء المتميز والجنس المتفوق.

وهو عقل يستبعد ويرفض ولا يعرف سلوكاً أو يضع تخطيطاً إلا للعدوان واحتواء الآخر والهيمنة عليه. يقوم على ثنائية المركز والأطراف. فهو المركز ودونه الأطراف. هو الأصل وغيره الفرع. هو الشعب وغيره "الجونيم". لذلك ائتلف مع العنصرية الغربية وعبّر عنها والتحم بها باستثناء لحظات التصادم معها كما حدث مع النازية، نازية آرية فى مقابل النازية السامية التى مثلتها الصهيونية. لذلك كانت حدود اسرائيل ليست جغرافية أو سياسية أو اقتصادية بل المدى

الذى تستطيع أن تصل إليه الهيمنة من خلال القوة المسلحة أولاً والسيطرة الاقتصادية ثانياً.

ويقوم هذا الحلم على نوع من المركزية الجديدة فى المنطقة العربية أثرت على القومية العربية وأعادت توظيف المركزية الغربية الأوروبية والأمريكية لصالحها بالسيطرة عليها لحساب المركز الجديد، وتكبيل دول المنطقة التاريخية بما فى ذلك تركيا بالأحلاف، وإيران بالتهديد، والعرب بالتطبيع إلى هوامش له، فلا تتحمل المنطقة مركزين، الصهيونية والقومية العربية. كما لم يتحمل العالم مركزين فى نهاية عصر الاستقطاب.

وينكسر هذا الحلم الصهيونى الجديد ليس فقط لنقص فى أسسه الذاتية بل أيضا بسبب الرفض الخارجى له. فالوجدان العربى ينأى عن العنصرية والعدوان والتهميش. حمل التوحيد عبر العصور، وتحررت شعوب المنطقة من إسار العنصرية والعدوان، وتعددت المراكز فيه، فى المدينة ودمشق وبغداد والقاهرة ومراكش والأندلس وخراسان واستانبول. كما يقف دونه الرفض العربى ومقاومة الجماهير للتطبيع. ومازال الإحساس العربى العام على مستوى الوجدان الشعبى أن الكيان الصهيونى جسم غريب مزروع من الخارج فى الجسم العربى الذى يلفظه بطبيعته حتى وإن طال الأمد. كما يرفضه التاريخ العربى الذى مازال متواصلاً منذ بداياته الأولى فى شبه الجزيرة العربية حتى تجلياته الأخيرة فى عصر القومية العربية والتنسيق العربى، والإجماع العربى على الحد الأدنى من مقومات الوجود العربى والكرامة العربية.

ويظّل الخطر الأعظم أمام هذا الحلم الصهيونى الجديد "العقول والسواعد والثروات" هو غياب حلم عربى جديد فى مواجهته حتى لا يكتفى العرب بمجرد الرفض والمقاومة للحلم الصهيونى دون تقديم حلم جديد يقوم بدور الهجوم إن كان الرفض مجرد دفاع.

لم تخل المنطقة العربية من الأحلام عبر التاريخ منذ تأسيس الدول العربية الأولى قبل الاسلام فى شبه الجزيرة العربية وعلى أطرافها فى الشمال والجنوب الشام واليمن، وفى الشرق والغرب عمان والحجاز. وقامت أول دولة عربية فى التاريخ باسم الإسلام. وانتشرت شرقاً إلى آسيا، وغرباً إلى أفريقيا والأندلس، وشمالاً إلى أوروبا. كان هذا حلم خالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاس وعمرو بن العاص وطارق بن زياد وموسى بن نصير، وتأسست بفضل هذا الحلم أعظم حضارة عرفها التاريخ قبل نشأة الحضارة الأوروبية الحديثة الوارثة لها والمستمدة منها جذورها.

وكان الحلم الثانى درء العدوان الصليبى من الغرب من أجل الاستيلاء على فلسطين وتحرير القدس كغطاء دينى للاستيلاء على ثروات الشرق. وحمل هذا الحلم صلاح الدين الذى أصبح فى وجداننا التاريخى رمزاً للمقاومة وتوحيد مصر والشام والدفاع عن القدس والإعلان عن مثل الإسلام وأخلاقياته وحضارته وسماحته فى علاقته مع الغرب العنصرى المتعصب العدوانى الجديد.

وكان الحلم الثالث درء العدوان الشرقى الوافد من أواسط آسيا: غزوات التتار والمغول التى وصلت إلى دمشق بعد تدمير بغداد. وقام سلاطين المماليك بتوحيد مصر والشام من جديد والانتصار على العدوان فى عين جالوت وحماية البوابة الشرقية للعالم العربى.

وكان الحلم الرابع درء العدوان الاستعمارى الأوروبى الحديث الوافد من الغرب أولاً فرنسا وانجلترا وبلجيكا وهولندا والبرتغال وايطاليا، ومن الشرق ثانياً، روسيا القيصرية أو الدولة الشمولية لابتلاع الجموريات الإسلاية فى أواسط آسيا وتحويلها إلى هوامش لمركز جديد هو إمارة موسكو بعيداً عن مراكزها العربية الإسلامية فى آسيا وأفريقيا.

وكان الحلم الخامس نشأة الدول المستقلة الحديثة وبناؤها وتخطيطها وتنمية مواردها. وهو حلم هذا الجيل الذى تمّ اجهاضه بعد التفريط فى الاستقلال الوطنى

والتنمية المستقلة حتى أصبح الوطن العربى مهدداً بالحصار من الخارج والابتلاع من الداخل.

فهل يستطيع الخيال العربى أن يعيد صياغة حلم عربى جديد فى مقابل الحلم الصهيونى: العقول والسواعد والثروات؟ هل يمكن إيجاد عناصر هذا الحلم فى ما تبقى من حلم الوحدة فى التعاون والتنسيق والحد الأدنى من الاجماع العربى، فى المصالح العربية لتحويل الأقوال إلى أفعال وتجاوز مراحل السياحة إلى تبادل فعلى تجارى بين العرب يفوق التبادل بين العرب والغرب فى أهمية القرابة والجوار تحقيقاً لمبدأ الشفعة فى التواصل مع التاريخ واستثمار هذا الحنين إلى الماضى عند العرب والعودة إلى العصر الذهبى سواء كان عصر الخلفاء الراشدين عند الإسلاميين أو فجر النهضة العربية عند الليبراليين أو حلم الستينات عند الناصريين والقوميين؟

هل يستطيع الخيال العربى أن يقدم إبداعاً ذاتياً عربياً لحلم عربى بديل يعتمد على المقومات الذاتية ويكون قادراً على حشد الجماهير وتحقيق حلم: العقول العربية والسواعد العربية والثروات العربية؟

٥- العرب وأمريكا

فى زيارة لمدة ثلاثة أسابيع للولايات المتحدة والمحاضرة فى خمس جامعات منها قبل وبعد حضور المؤتمر السنوى للجمعية الأمريكية للدين فى مدينة نيو أولينز أردت أن أعرف صورة العرب فى أجهزة الإعلام الأمريكية، فى الصحف والإذاعة والتلفزيون كى أقارن بين صورتهم فى الداخل عند أنفسهم وصورتهم فى الخارج عند غيرهم. وأنا مهموم بالعرب فى الداخل، وأحمل همى معى فى الخارج لعلى استطيع أن أخفف من حمله أو قد يزداد الحمل.

والإعلام فى الولايات المتحدة الأمريكية هو كل شئ، يعكس طبيعة المجتمع الرأسمالى الحر الذى يتقدمه الإعلام. عشرات المحطات التلفزيونية التى تتجاوز السبعين، وعشرات محطات الإذاعة مثل ذلك، وعشرات الصحف والمجلات التى تتجاوز المئات، وشبكات تلفزيونية بما فى ذلك C.N.N، تعطى آخر الأخبار كل ساعة. فإمكانية التعرض لأخبار العالم كبيرة وميسورة. وبطبيعة الحال يتحكم رأس المال فى الإعلام، من يدفع أكثر، ومن له قوة أكثر فى مجتمع المال يكون له صوت أعلى. والقوة فيه آلهة.

وبحثت عن وضع العرب، وصورة العرب، ونحن نصحو كل يوم على الخليل والقدس وجنوب لبنان والجولان، والعراق وليبيا المحاصرين، وإيران والسودان المهددين، والعنف المسلح فى الجزائر، وعرفات ونتانياهو والشرق أوسطية والمتوسطية، ومؤتمر القاهرة الاقتصادى، والسلام والحرب والاستقلال السياسى والتعاون الاقتصادى أيهما أسبق، فلم أجد شيئا من ذلك كله فى الإعلام الأمريكى وكأن العرب قد غاصوا فى قاع المحيط، ابتلعتهم المياه، وكأنهم هبطوا إلى أعماق الأرض بعد زلزال كبير.

البيان ١٩٩٦/١٢/٢.

تلك هى صورة العرب فى الإعلام الأمريكى، لا وجود لهم، لاقادة ولا شعوبا، لا ماضيا ولا حاضرا ولا مستقبلا، لاسياسة ولا اقتصاد، لا حربا ولا سلما، لا دما ولا حياة، لاهمّا ولاوجودا. فازداد همى فى الخارج على همى فى الداخل، أزمة العرب فى الداخل وإسقاط العرب فى الخارج، صراع العرب فى الداخل لصنع التاريخ، وتهميشهم فى الخارج خارج التاريخ. أتنقل بين الجامعات وأحاضر هنا وهناك. والكل يسأل: من هذا؟ ومن هم العرب؟ مسلم غير إرهابى كيف يكون؟

الموضوع الأول فى الإعلام الأمريكى الذى يتصدر محطات الإذاعة والتلفزيون هو محاكمة سبمسون لاعب الكرة الأسود المتهم فى قضية قتل زوجته السابقة وعشيقها ذبحا بعد أن برأته محكمة الجنايات، ويحاكم من جديد فى محكمة مدنية للحكم بالتعويض عليه فى حالة الإدانة. الكل يعلم أنه قاتل ولكن إجراءات التقاضى فى الولايات المتحدة وبراعة المحامين ونظام المحلفين والإجراءات الكثيرة المعطاة للمتهمين دفعا للظلم تجعل أحيانا المذنب بريئا، والقاتل مقتولا. والقضية مطروحة على الإعلام الأمريكى منذ أكثر من عام. وتجاوزت تكاليف المحامين فيها عشرات الملايين من الدولارات. وتحولت إلى وسيلة للكسب والإثراء والتبرعات لهذا المحامى أو ذاك، للمتهم أو للادعاء. وتحولت إلى شرائط فيديو بالمسلسلات التلفزيونية.

وتتجلى براعة أدلة الإثبات. وتظهر إمكانيات العلم الحديث فى العثور على القرائن: اختبارات الدم، والبصمات، وإثبات وجود المتهم فى مكان آخر غير وقوع الجريمة بالدقائق، ونوع الحذاء الذى ترك آثار الدماء عليه على البساط. ويعرض كل ذلك أمام المحلفين الذين ينقطعون عن العالم كله لا يتصلون بأحد ولا يتصل أحد بهم كى يسمعوا كل شئ وينتهوا إلى الحكم.

ولما كان المتهم أسودا يظهر عامل اللون فى الدفاع واتهام شهود الإثبات بالتمييز العنصرى وبتاريخهم العنصرى. ويتعاطف بعض المحلفين السود مع المتهم الأسود منذ البداية بصرف النظر عن الأدلة. والمحامون من السود والبيض لإخفاء

العامل العنصرى. وتطغى الإجراءات على الموضوع، والكل يحرص على سلامة الشكل حتى لو ضحى بالمضمون. وإلا فمن القاتل إذن؟ ومازال الأمر مستمرا لإثبات حق القتيلين فى التعويض المدنى حتى ولو كان القاتل بريئا فى الحكم الجنائى. ولو أثبتت محكمة الجنايات الجريمة لما قتل القاتل ولما وقع القصاص، فالإعدام محرم فى ولاية كاليفورنيا، أما القتل فحلال!

والموضوع الثانى حوادث وقوع الطائرات داخل أمريكا وعلى حدودها، وقوع طائرة TWA على حدود الساحل الشرقى، ووقوع الطائرة الحربية على الساحل الغربى، ووقوع طائرة الفاليوجيت فى أحراش فلوريدا، ووقوع مئات الضحايا من الأمريكيين. وركوب الطائرات فى أمريكا أمر يومى فى حياة الأمريكيين مثل العربات ومثل المواصلات العامة فى بلاد العرب نظرا لاتساع القارة الأمريكية وكثرة المصالح فى المجتمع الحر واقتصاد السوق. فوقوع الطائرات يهدد أساسيات المجتمع الأمريكى وخدماته العامة. والمجتمع الرأسمالى يقوم أساسا على توفير الخدمات وتيسير سبل الاتصال.

وقد يظهر العرب كلما حدثت المصائب. فاحتمالات أسباب وقوع الطائرات كثيرة. أولها قنبلة من وضع عربى إرهابى، فلسطينى أو إيرانى أو ليبى أو سودانى. ويظهر تاريخ العرب الإرهابى. والماضى يصنع الحاضر، والتاريخ يضع أحداثا جديدة. فالقانون واحد، والصورة واضحة. مادام العرب قد فجروا مركز التجارة الدولى فلماذا لا يكونون وراء تفجير مبنى الحكومة الفيدرالية فى أوكلاهوما أو وقوع طائرة TWA ؟ فالموت واحد للأمريكيين والسبب واحد من العرب.

وهناك احتمالات أخرى ولكنها لا تأتى إلا فى الدرجة الثانية: الأخطاء الفنية، العطل الكهربائى، صواريخ التدريب الأمريكية فى المنطقة، عبوات الأوكسجين فى خزانة البضائع. ولكن العرب هم الأشرار. ولا يأتى الشر إلا منهم. ومازالت صورتهم فى أجهزة الإعلام ورسومات الأطفال والأفلام الروائية والدعائية، القتل والاغتيال والتآمر والإرهاب وسفك الدماء بالإضافة إلى الملذات الحسية، الخمر

والنساء والمال والبذخ حتى فى الخيمة وعلى الجمال. وبعد خطف الطائرة الأثيوبية ووقوعها على سواحل جزر القمر لم يعلم الأمريكيون إلا أن أربعة من الأمريكيين أحياء بصرف النظر عن المائة وعشرين غريقا. فحياة أمريكى أو صهيونى لا يعادلها موت المئات من غير الأمريكيين أو من العرب.

والموضوع الثالث هو التحرش الجنسى فى الجيش الأمريكى. فالجيش الأمريكى يضم الرجال والنساء فى التدريب والعيش المشترك إلا فى القتال. وبطبيعة الحال تنشأ العلاقات العاطفية بين المجندين والمجندات، والرؤساء والموظفات فى المكاتب. ومادام لا يشتكى أحد فالأمور طبيعية. أما إذا حاول رجل التحرش بأمرأة وهى غير راغبة اشتكته إن لم ينفع معه النهر والتحذير. وازدادت الشكاوى بالمئات ثم بالآلاف. فما العمل؟ الانتباه إلى الدرس أم الإغراق فى التدريبات حتى يهلك الجميع أم العقاب؟ ولا أحد يفكر فى فصل المجندين عن المجندات لحل المشكلة من أساسها فالاختلاط أساس المجتمع الحر.

ويتم استدعاء المجندات الضحايا المتزينات ويشرحن ماحدث لهن وآراءهن. كما يتم استدعاء الرؤساء لاستطلاع الآراء ورؤية الحل دون المساس بمقدسات المجتمع الأمريكى، الحرية والاختلاط، ورفض التمييز بين الرجل والمرأة فى أى مجال بما فى ذلك التجنيد والتدريب والقتال. ولا يفكر أحد فى إطفاء الحريق من البداية وأسباب اشتعاله دون وقوعه ثم التفكير فى طرق الإطفاء.

والموضوع الرابع الفضائح المالية للحزبين الديموقراطى والجمهورى فى التبرعات لتمويل الحملة الانتخابية الأخيرة. لقد نجح الرئيس الديموقراطى فى الرئاسة ونجح الجمهوريون فى السيطرة على المجلسين، النواب والشيوخ. ولكن الحزب الجمهورى يريد أن يستأنف حملته ضد نزاهة الديموقراطيين رئيسا وحزبا. والرئيس الديموقراطى يعد بتعيين وزراء جمهوريين فى إدارته الجديدة. ويستعد الجمهوريون إذا ما فتح الحزب الديموقراطى ملف التبرعات أن يفتح هو أيضا ملف تبرعات الجمهوريين. فالكل فى التلاعب فى الأموال والتحايل على القانون سواء.

وقد كانت الحملة الانتخابية الأخيرة أغلى الحملات الأمريكية تكلفة على الإطلاق. الفساد عند الجميع. المهم إلا يكشف سره أحد. ولو وقعت البقرة كثرت سكاكينها كما يقال فى المثل العربى.

ومع فضائح المال فضائح النساء والعلاقات الخاصة التى قد تؤثر سلبا على صورة المرشحين. وتُغرى النساء بالمال صدقا أم كذبا للإعلان عن هذه الفضائح. وتقف زوجات المرشحين بجانب أزواجهم لإعلان برائتهم أمام الجماهير حرصا على مستقبلهم السياسى أكثر من التحقق من صدق الاتهامات أو كذبها. تظل ذيول الحملة الانتخابية باقية فى الإعلام الأمريكى استعدادا للحملة القادمة بعد أربع سنوات. فكما أن العين على المال العين على السلطة دون هدوء أو استبطاء ودون رعاية للحياة الخاصة فى مجتمع أصبح كل شئ فيه عرضه للاستهلاك والإعلام.

والموضوع الخامس والأخير هو أخبار الرئيس وزيارته الأخيرة لاستراليا وجنوب شرق آسيا للمتعة والعمل، للراحة والسياسة. وكما فتح نكسون باب الصين فإن كلينتون يزور جنوب شرق آسيا. وهو أول رئيس يقوم بذلك منذ أربعة عشر عاما. ويلبس القميص الوطنى الفلبينى، ويصافح الرئيس الصينى. ويتقايضان معا حقوق الإنسان فى الصين مع التجارة فى أمريكا. فأمريكا تدافع عن حقوق الإنسان عند الآخرين وليس عندها. وتساوم على صمتها عنها إذا ما كان فى ذلك تجارة وربح.

ومع أخباره فى الخارج، تذكر أخباره فى الداخل، التغييرات المتوقعة فى إدارته خاصة المناصب الحساسة مثل الخارجية والدفاع. كما استقال البعض من نفسه لأنه لا يكسب بما فيه الكفاية، ومعروض عليه مرتب أكثر من القطاع الخاص. بل إن الحديث عن احتمال تعيين أولبرايت مندوبة الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة والمعروفة بمعاداتها للعرب وبمناصرتها لإسرائيل فإنه موضوع يحمل همه العرب وليس الأمريكيون.

فأين العرب؟ إنهم فى عالم مهمش على الأطراف. يستجدون العون الاقتصادى والسياسى. والمجتمع الأمريكى لا يعرف إلا لغة القوة والمال. لذلك أسقط الإعلام الأمريكى العرب من الحساب. فلسطين ليست بؤرة اهتمام، حصار شعبها واحتلال أرضها، وعنف المستوطنين المدججين بالسلاح، ورفض الانسحاب من الخليل وبداية المفاوضات حول مستقبل الأراضى المحتلة طبقاً لاتفاقيات مدريد وأوسلو والقاهرة، واحتلال جنوب لبنان، واحتمال العدوان على سوريا، وانتشار الاستيطان فى الجولان، والتنقيب عن النفط، ومؤتمر القاهرة الاقتصادى، كل ذلك خارج العالم وليس له مكان فى بؤرة الاهتمام الأمريكى العام.

وما يحدث فى الجزائر من قتل وقتل متبادل وسفك للدماء ووقوع الضحايا كل يوم، وما يحدث فى أفغانستان بالرغم من ضلوع أمريكا فيه منذ مساعدة المجاهدين ضد الغزو الروسى لاستنزاف الجيش الروسى حتى مساعدة الطالبان تدعيما لحكم إسلامى محافظ يقوم على الإتجار بالمخدرات ويتعاون مع الولايات المتحدة فى التجارة والسوق، كل ذلك ليس بالحدث الإعلامى بل نشاط المخابرات الأمريكية أو الرياسة لاشأن للرأى العام بها.

بل إن الملايين الأفارقة المهددين بالموت جوعا ومرضا على الحدود بين زائير ورواندا، وتكوين قوة دولية لحمايتهم وإنقاذهم من الهلاك جوعا أو قتلا من القبائل ومليشياتها موضوع يهم الإدارة الأمريكية. وتتردد أمريكا فى إرسال قوة صغيرة رمزية غير مقاتلة مع القوات الكندية وباقى قوات الأمم المتحدة بالرغم من الموافقة عليها من المنظمة الدولية فى حين أنها عزمت أمرها للتخلص من العراق وحشدت الحشود لأكثر من ثلاثين دولة ومازالت تفعل.

فالعرب مثل الأفارقة خارج التاريخ وخارج بؤرة الاهتمام. وأمريكا هى التى تصنع الأحداث وتحرك مسار التاريخ. ورأت تهميش العرب. والعرب يرون أن ٩٩,٩٪ من اللعبة مازالت فى يد أمريكا، وأنها الحليف والصديق والوسيط والراعى الأول والأخير لعملية السلام. وينتظر العرب ستة أشهر قبل الانتخابات لانشغال

الرئيس وعدة أشهر بعدها حتى يعود الرئيس ويطول الانتظار. والعرب ليسوا على بال أجهزة الإعلام الأمريكية التى تعتبر مؤشرا عما يدور فى العقل والوجدان الأمريكى وكيف يتصور العالم.

لذلك خرجت أوربا عن صمتها لعلها تستعيد دورها مع آسيا وأفريقيا وهى الامتداد الطبيعى لها. وهنا قد يظهر العرب فى هذا التحول فى مسار الوعى الأوربى من الغرب إلى الشرق والجنوب.

ويظل العرب ينظرون إلى العالم، والعالم لا ينظر إليهم.

opeikandl.com

٦- القوة والثروة والجنس

انهارت النظم الاشتراكية فى أوربا الشرقية كلها وفى الاتحاد السوفيتى وربما بقيت مُثلها فى العدالة الاجتماعية والمساواة. فما انهار هو الطابع الشمولى التسلطى لهذه النظم التى أعطت الأولوية للجماعة على الفرد، وللعام على الخاص، وللدولة على المواطن، وللخبز على الحرية.

وتبقى النظم الرأسمالية خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية، هذا العالم الجديد الذى ليس له رصيد كبير فى الحضارة أسوة بالرأسمالية الغربية التى قامت على رصيد ضخم من الليبرالية على مدى عدة قرون. ولكن قد لا تبقى مُثلها والقيم التى تقوم عليها مما يؤذن أيضا بانهيارها.

وأهم المُثل التى يقوم عليها النظام الأمريكى: القوة والثروة والجنس. فالمجتمع الأمريكى مجتمع وليد. نشأ من مجموعة من المهاجرين، الباحثين عن المال والثروة والذهب أو مجموعات من الهاربين من العدالة الخارجين على القانون أو مجموعات ثالثة من قطاع الطرق الذين يودون اللحاق بالثروة اعتمادا على القوة. وأقلها الطالبون للحرية المضطهدون دينيا مثل بعض الفئات البروتستانتية أو بعض الطوائف مثل المرمون الذين يقولون بنبوات جديدة بعد المسيح.

وسارعت الطوائف وتسابقت على الانتشار فى الأرض وفى مقدمتهم البريطانيون والفرنسيون والأسبان والإيطاليون والبرتغاليون والهولنديون زحفا نحو الشمال الأمريكى مثل الفرنسيين أو نحو الوسط مثل البريطانيين أو الجنوب مثل الأسبان. وبدأت أكبر عملية إبادة فى التاريخ للشعوب الأصلية، الهنود الحمر على عدة قرون حتى فرض على ما بقى منها نظام المعسكرات المعزولة، يقوم السياح بمشاهدتها أو تستعملها هوليود فى أفلامها. كما بدأت أكبر عملية نزح من أفريقيا وسرقة شعوب بأكملها مستقلة وتحويلها إلى عبيد للعمل فى الأراضى الجديدة على

البيان ١٦/١٢/١٩٩٦.

مدى خمسة قرون حتى الحرب الأهلية فى القرن الماضى. ومازالت قضية المساواة بين الأجناس مطروحة على النظام الاجتماعى الأمريكى الذى قام منذ البداية على العنصرية وتفاوت الأجناس. أعلاها الجنس الأبيض الأنجلوسكسونى البروتستانتى وأدناها الجنس الأسود وما بينهما باقى الأجناس الأوربية أولا والعربية ثانيا.

ويتجلى مثال القوة فى الخارج والداخل، التدخل العسكرى الأمريكى فى الخارج والاعتماد على القوة العسكرية فى إملاء الإرادة الأمريكية على باقى الشعوب حتى أصبحت شرطى العالم. ومازالت أساطيلها تجوب البحار والمحيطات. وأصبح المجمع الصناعى العسكرى الأمريكى أكبر مجمع فى العالم. يزدهر باندلاع الحروب. وينتعش الاقتصاد بكثرة ما ينتج من أسلحة الدمار كما كان الحال أثناء الحرب الكورية والفيتنامية. يؤرّد القديم إلى شعوب أفريقيا وآسيا ويستبقى الجديد. ويقيم المعسكرات خارجه والقواعد العسكرية فى القارات الخمس للسيطرة على مقدرات العالم تحقيقا لنموذج القوة.

وقد ولّد هذا النموذج حركات معادية للأمريكيين فى شتى أنحاء العالم، خارج الولايات المتحدة وداخلها، داعية للسلام واستقلال الشعوب، ورفضا للعدوان والانخراط فى الجندية، وحرق الأعلام الأمريكية، وكتابتها ورسمها على المقعدة والحذاء من الشباب الرافض لمثال القوة.

كما تتجلى القوة فى الداخل، فى الجريمة المنظمة التى تقوم بها جماعات الضغط والمليشيات المسلحة التى أصبحت جيشا داخل الجيش، ودولة داخل الدولة، والجماعات العنصرية والطوائف بحيث تجاوزت عصابات المافيا الإيطالية الشهيرة فى جنوب إيطاليا وصقلية. فدمرت الأبنية الحكومية مثل حادث تفجير المبنى الفيدرالى فى أوكلاهوما، وقتل الرؤساء والزعماء مثل كيندى ومارتن لوثر كنج وزعماء الفهود السوداء. تحاول كل طائفة فرض سلطتها بالقوة على باقى الطوائف كما هو الحال فى النظم القبلية القديمة.

وهناك جرائم الأفراد. فأصبحت القوة إحدى الوسائل لتحقيق المطالب دون حق، اغتيال الخصوم، الاعتداء على المخالفين، قتل الرجل لعشيقته أو العشيقة لرجلها كما هو الحال فى قضية سبمسون الأخيرة، اعتداء الأبيض على الأسود أو الملون، بل قتل الأبيض للأبيض للسرقة أو للإزاحة من الطريق. وكلما زاد الخطر ازدهرت شركات التأمين على الحياة بل وعلى عضو عضو من أعضاء الجسد. وتجمّع رأس المال، وزادت الفوائد، وعظم الربح.

وتتمثل القوة فى علاقات العمل وفى باقى مظاهر العلاقات الاجتماعية فى طلب المناصب والرقى فيها، والسعى إلى السياسة والمناصب السياسية، وطلب المناصب العليا فى الإدارة والصناعة. وتطغى الأهواء والمصالح على القوانين والحقوق. الأعلى يستغل الأدنى ويسيطر عليه ويوجهه. والأدنى يرشى الأعلى ليحقق مطالبه.

وانتشر نموذج القوى فى الأفلام وصناعتها فى شخصيات راعى البقر القاتل القوى الخارج على القانون، والبطل الرياضى مثل روكو الأول والثانى والثالث، والرجل الحديدى، والمرأة الحديدية، واليد الفولاذية. فالقوة تصنع الأعاجيب وتحقق المعجزات.

والمثال الثانى فى المجتمع الأمريكى الثروة أو المال أو الغنى أو الكسب السريع. فقد تكون المجتمع الأمريكى من مجموعة من الفقراء لا يملكون إلا أجر المركب الشراعى إلى العالم الجديد بهدف الاغتناء. والأراضى شاسعة، والثروات الطبيعية متوافرة، والعقل الأوربى الناهض أداة للسيطرة على الطبيعة.

وبدأ البحث عن الذهب فى الداخل ثم قطع الأشجار والإتجار فى الثروة الحيوانية والبشرية ثم إقامة المزارع الجماعية والصناعات الأولى من أجل تجميع رأس المال الأولى قبل أن يتحول إلى مضاربات وأسواق وعقار وأراضى منهوبة للبيع والشراء.

وبعد نهب الثروات فى الداخل بدأ التحول إلى الخارج جنوبا إلى المكسيك، وشمالا إلى كندا، وغربا حتى كاليفورنيا وشمالها فى ألاسكا. وبعد أن ظهرت امريكا كقوة دولية فى هذا القرن بدأ نهب الثروات من الشعوب القديمة فى آسيا وأفريقيا حتى استولت على ثروات العالم وبعد أن بدأت القوى الاستعمارية الأوربية فى الانحسار.

وظهرت قيم الكسب السريع، كيف نكسب مليون دولار؟ ويُقيّم كل شئ بثمنه حتى الأفكار، فكرة بمليون دولار، رجل بمليون دولار، بل القتل من أجل حفنة دولارات.

والثروة لا تعرف القيمة. قيمتها فى زيادتها. فكثر الغش، وازدادت حوادث السرقة بالإكراه أو التحايل. فرأس المال يجلب قيمه. ولا فرق فى التسمية بين الرشوة والهدية والعمولة والربح والإكرامية.

أصبحت قيمة المنصب فى مقدار ما يدره من ربح على صاحبه دون ولاء لعمل أو مؤسسة أو قضية. يترك الأستاذ الجامعى جامعته وولايته إلى جامعة أخرى فى ولاية أخرى لمرتب أفضل وأجر أزيد. أصبح الربح قيمة، والأجر المرتفع فضيلة. بل قامت حركة النساء أساسا فى بدايتها وحتى الآن للمساواة فى الأجر بين المرأة والرجل.

وكانت الثروة أحد الدوافع الأساسية للهجرات العربية والآسيوية إلى أمريكا بحثا عن رزق أوسع. ويتيح المجتمع الأمريكى ذلك عن طريق الاقتراض من البنوك والفوائد المرتفعة واستثمار رأس المال الأولى حتى عن طريق استغلال العمالة الوافدة. ولا حدود للربح أو الثراء. فالمليونير والبليونير شخصيات أمريكية تجذب انتباه الشعوب والأفراد. وكثرت أفلام الباحث عن المال، والباحث عن الثروة، والباحث عن الذهب.

والمثال الثالث فى الحياة الامريكية الجنس أو لذة الحياة أو السعادة بالمعنى الضيق المحدود، الطعام والشراب والكساء والرفاهية والمتعة والراحة والوفرة والجنس. ولا يوجد مجتمع يوفر هذه المطالب باعتبارها حاجات أساسية مثل المجتمع الأمريكى.

الطعام الأمريكى الهامبورجر والآيس كريم، والشراب الأمريكى الكوكاكولا، والكساء الأمريكى البلوجين، والرفاهية الأمريكية العربة والمنزل والحديقة، والمتعة الأمريكية فى وسائل الراحة وسهولة الحياة، والوفرة فى استغنائها عن الاستيراد. فكل شئ موفور على مدى فصول العام. مجتمع ينتج كل شئ، ويستهلك كل شئ، وسعيد بكل شئ بلا حدود.

والجنس بلا رقابة أو رعاية أو قانون. لذلك ازدهرت تجارة الجنس وصور الجنس وأفلام الجنس وممارسات الجنس الفردية والجماعية بالرغم من انتشار الأمراض. الجنس قيمة فى ذاته ومطلب. وجسد المرأة موضوع للمتعة بلا نظام.

وانتشر الشذوذ الجنسى بعد الإشباع الطبيعى، اللواط والسحاق، وممارسة الجنس مع الأطفال. ويُطالب الآن بتشريع الزواج بين رجلين أو امرأتين مادام كل طرف يحب أن يعاشر الطرف الآخر ويأنس له. وقد تم ذلك بالفعل فى ولاية هاواى.

وانتشر الإيدز، وعم السرطان من الرغبة الشديدة فى التمتع بالحياة والتدخل المصطنع فى مسار الطبيعة. فضعفت خلايا، وتكاثرت أخرى بلا نظام. ويزدهر التأمين الطبى. ويثرى الأطباء كما أثرى المحامون. والآن يثرى المحللون النفسيون من أجل علاج المرضى النفسيين والبؤساء وكأن مُثل القوة والثروة والجنس لم تحقق السعادة المرجوة للفرد والمجتمع.

لذلك ظهرت قضية الولاء فى المجتمع الأمريكى، تطرح نفسها على المفكرين ويتناولها الفلاسفة. فولاء الأمريكى لمن؟ لله أو للوطن أو للقضية؟ الله

هو الدولار والثروة والمال. والوطن هو القوة والطغيان والسيطرة والغزو. والقضية هى التمتع بالحياة بلا حدود.

لذلك ثار الشباب. ورفضوا هذه المُثل الثلاثة فى المجتمع الأمريكى مكتشفين الشرق، البوذية أو الهندوكية أو الإسلام حتى يحدث توازن فى حياتهم بين المادة والروح، فينتقلون من طرف إلى طرف، ومن نقيض إلى نقيض. فيغالون فى لباس الرهبان، ويرفضون مظاهر الحداثة.

مُثل المجتمع الأمريكى، القوة والثروة والجنس، أقرب إلى مُثل المجتمع الوثنى منها إلى مُثل الجماعة اليهودية أو المسيحية، تؤله الدنيا وتنكر الآخرة. أو هى أقرب إلى مُثل المجتمع اليهودى وليس المسيحى والذى حول المعبد إلى تجارة، والإيمان إلى مصلحة، والروح إلى بدن. وقد نقد محمد إقبال من قبل هذه الحضارة المادية "لقد جعلتم أرض الله دكانا".

وسادت الفلسفات العملية، قيمة الشئ فى مقدار النفع الذى يحققه، والنتيجة المادية التى ينتهى إليها. كما سادت الذرائعية، الغاية تبرر الوسيلة، وأن القيم والمُثل العليا والأفكار ماهى إلا وسائل لتحقيق منافع عملية.

ولا ضير أن تتحول المسيحية إلى دين مدنى يحافظ على تماسك المجتمع الأمريكى. ويرفع بجوار القداس العلم الأمريكى، لا فرق بين دين ووطن، إيمان وسياسة. وأصبح للبيت الأبيض قساوسته ودعاته وخطابه ووعاظه. يساهمون فى الدعاية الانتخابية للمرشحين الديموقراطيين أو الجمهوريين.

ولا عجب أن يؤمن الأمريكى بالطهارة وصفاء القلب ونقاء الضمير وأن يشعر بالحياة الروحية بينه وبين نفسه كنوع من الاطمئنان الداخلى وعزاء النفس بالنفس وراحة الضمير فى ساعة الصفو وأيام الآحاد والعطلات الدينية. ولكنه فى الحياة العامة ينغمس فى مُثل المجتمع الأمريكى فى ملكوت القوة والمال ولذة الحياة

حتى يتعب ويرهق ثم يعود إلى طهارته القلبية ليخلص نفسه من هموم الدنيا ومتاعب المال.

غاب القانون العام، وحلت المصلحة محله. وساد القوى على الضعيف، والغنى على الفقير. وظهر المعيار المزدوج فى كل شئ، فى الداخل والخارج، فى حقوق البيض والملونين فى الداخل، وفى الخليج وفلسطين فى الخارج.

والخطورة فى ذلك هو سيادة هذه المُثل الثلاثة فى الإعلام الأمريكى لخلق صورة مجتمع واحد لا تمايز فيه، وإخفاء جانب آخر فى المجتمع الأمريكى، واقع الضعف والفقر والحرمان لملايين من البشر فى أبلاشيا فى الساحل الشرقى أو على مقربة منه وملايين من الأمريكين الأفارقة ضحايا المرض والبطالة والعوز، وملايين من الأمريكيين الأسبان 'الشيكانو' الذين يتسولون العمل والخبز بعد أن احتلت أمريكا سلما أو حربا الأجزاء الشمالية من أراضى المكسيك في الكسيك الجديدة وكاليفورنيا.

يبدو أننا فى العالم العربى مازلنا نظن أن أمريكا هى أرض الأحلام، ومازالت طوابير الانتظار أمام السفارات الأمريكية فى العواصم العربية طلبا للهجرة نحو العالم الجديد دون وعى بالفرق بين الأسطورة والواقع، بين الحلم واليقظة، بين الوهم والحقيقة.

٧- الإسلام والغرب

يثار فى هذه الأيام موضوع قديم جديد له صياغات عديدة مثل الإسلام والغرب، أوربا والإسلام، حوار الشمال والجنوب، الحوار العربى الأوربى ليرث الموضوع القديم الشرق والغرب أو الستار الحديدى والعالم الحر. وتدل كل صياغة على عقلية التحيز ضد الإسلام لصالح المركزية الأوربية. فالإسلام دين وحضارة، والغرب منطقة جغرافية فى التقابل بين الإسلام والغرب. فالمعيار ليس واحدا بل هو معيار مزدوج. فالغرب يرى الإسلام دينا ويرى نفسه موقعا جغرافيا مما يكشف عن تعصب الغرب تجاه الإسلام ودفاعه عن نفسه كموقع جغرافى سياسى. يكره الإسلام كدين ويدافع عن نفسه كموقع سياسى. يرى الآخر كثقافة وحضارة ويرى نفسه كمنفعة ومصلحة. ويسمى البوسنيين المسلمين فى مقابل الصرب والكروات.

ومثل ذلك أيضا صياغة أوربا والإسلام. البداية بأوربا قبل الإسلام وبالأنا قبل الآخر. وأوربا أكثر خصوصية من الغرب الذى قد يشمل الغرب الأمريكى. كما أن أوربا لفظ أكثر دلالة على الحضارة مثل الحضارة الأوربية فى حين يظل الغرب موقعا جغرافيا. وقد تعنى هذه الصياغة حضور الإسلام داخل أوربا أكثر مما تعنى وجود الإسلام خارج الغرب متحديا إياه كما هو الحال فى الصياغة الأولى. فقد أصبح الإسلام الدين الثانى فى أوربا بعد المسيحية. وتأتى اليهودية بعده. بل إنه يكاد يصبح كذلك فى الولايات المتحدة الأمريكية بالرغم من وجود ثمانية مليون يهودى فيها، بفضل دخول الأمريكيين الأفارقة الإسلام وبفضل الهجرات العربية الإسلامية الأخيرة. فإذا كان الإسلام فى الصياغة الأولى، الإسلام والغرب، يمثل تهديدا خارجيا، فإن الإسلام فى الصياغة الثانية، أوربا والإسلام، يمثل تحديا داخليا.

البيان ١٩٩٦/١١/٤.

أما الصيغة الثالثة الحوار العربى الأوربى كما نسميه نحن هنا فى الوطن العربى فإنه فى الغرب الحوار الأوربى العربى Euro-Arab يبدأ بأوربا قبل العرب. ويمثل هذا الخلاف فى أولوية الترتيب جوهر الخلاف فى المضمون. فالعرب يريدون الحوار سياسيا أولا، وفى مقدمته قضية فلسطين. وأوربا تريده اقتصاديا أولا، وفى مقدمته اقتصاد السوق. العرب ينتظرون من أوربا المساعدة السياسية أولا ضد تحيز الولايات المتحدة الأمريكية، وأوربا تريد من العرب استرداد العمالة العربية المهاجرة أو الحد منها لأنها بدأت تمثل خطراً على الهوية الأوربية.

أما الصياغة الرابعة حوار الشمال والجنوب فإنه يمثل نطاقا أوسع. فالعرب جزء من الجنوب مع أفريقيا، والغرب هو الشمال. مع أن العرب أيضا جزء من الشرق الأسيوى. بل إن معظم أقطاره هناك باستثناء مصر والسودان وموريتانيا والمغرب العربى ودوله الأربعة. وقد تعنى هذه الصياغة الرابعة إبراز صلة الجوار بين العرب وأوربا أكثر من صلة الجوار بين العرب وآسيا، مع أن أوربا نفسها بدأت تحاور آسيا فى الحوار الأوربى الآسيوى، والعرب أولى به نظراً لطول جناحهم الآسيوى.

وتظل الصياغة الأولى، الإسلام والغرب، أكثر انتشارا ودلالة. فقد ظهر الإسلام فى أوائل القرن السابع الميلادى وارثا عصر آباء الكنيسة اليونان واللاتين ومبينا أوجه الخلاف بين الفرق المسيحية، وكاشفا عن اليقين الذين غطوه بمجموعة من الظنون حول شخص عيسى بن مريم، وهو روح الله وكلمة منه كما يصف القرآن الكريم. وينتقد الرهبانية التى ابتدعها المصريون فى الصحراء الغربية فى القرن الرابع. كما يكشف عن أقوال عيسى بن مريم قبل أن يتم تدوينها على نحو غير دقيق مما أوقع المسيحيين فى خلافات عقائدية حتى اليوم لدرجة الاقتتال بين الفرق المسيحية وسفك الدماء.

كما ورث الإسلام التراث اليهودى. وأعاد توضيح دين إبراهيم وتخليصه مما علق به من غلو فى العقائد ونسبة نبوة أشخاص بعينها إلى الله، وادعاء الاختيار والاصطفاء والعهد والميثاق بلا طاعة مرتجاه أو إيمان صادق، وبالرغم من العصيان. وأعاد إلى الدين صدقه الداخلى بعيدا عن الرسوم والأشكال والمظاهر التى تحولت إلى نفاق وتسلط على رقاب الناس قام به الأحبار والرهبان. ودعا إلى المساواة بين البشر، وعدم اتخاذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله. فرد إلى التوحيد نقاءه وفعاليته فى أخلاق البشر ونظمهم الاجتماعية، بالحرية، والمساواة، والعدالة الاجتماعية.

ولم يرث الإسلام الدين والحضارة فقط بل ورث إمبراطورية الروم. ففى أواخر الدعوة الإسلامية والرسول مازال حيا بدأت الحرب بين العرب والروم فى شمال شبه الجزيرة العربية لتأمين حدودها الشمالية وضم العرب فى الشمال إلى المركز فى الحجاز. وبانتشار الإسلام فوق المستعمرات الرومانية فى شمال أفريقيا وجنوب أوربا على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وعلى شمال شبه الجزيرة العربية فى الشام والعراق والمستعمرات البيزنطية، ورث الإسلام الغرب حضارة وموقعا حتى فتح القسطنطينية فى ١٤٥٣ ميلادية قبل انحسار الإسلام عن الأندلس وسقوط غرناطة فى ١٤٩٢ ميلادية.

وتمت ترجمة التراث اليونانى القديم وتم شرحه وتلخيصه وعرضه وإكماله ووضعه فى تصور حضارى جديد أعم وأشمل يقوم على وحدانية الله وخلق العالم وخلود النفس والثواب والعقاب جزاءً على الأعمال. ولا فرق بين العقل والنقل، بين الحكمة والشريعة، بين الفلسفة والدين. فإذا كان القدماء قد توصلوا لذلك بالعقل فإن المحدثين قد عرفوه بالوحى تأكيدا للعقل. وإذا كان الأوائل قد عرفوا الفضيلة فإن الأواخر قد تلقوها عن طريق النبوة. وأبدعت الحضارة الإسلامية الفلسفات والعلوم، وشيدت العمران، وبلغت الذروة فى عصر المتنبى والبيرونى وابن سينا.

وكان الغرب فى ذلك الوقت قد انتهى من العصر القديم، القرون السبعة الأولى قبل ظهور الإسلام وبدأ عصره الوسيط، القرون السبعة التالية حتى قبيل عصر النهضة، يترجم من الحضارة الإسلامية، من العربية إلى اللاتينية مباشرة أو عبر العبرية فى الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا فى المغرب، وبيزنطة فى المشرق. وكان للحضارة الإسلامية أنصار داخل الغرب خاصة الرشديون اللاتين. وكان لابن سينا أنصار. كانت الحضارة الإسلامية هى الإطار المرجعى للغرب فى العصر الوسيط. وكان كل عقلانى يسمى مسلما، والفلاسفة أنصار المسلمين يقولون مثلهم بالتوحيد بين العقل والنقل، وبين الفلسفة والدين. فنشأ تيار علمى عقلانى إنسانى فى العصر الوسيط، هو امتداد للحضارة الإسلامية فى الغرب. وأصبحت مؤلفات البيرونى والرازى والكندى وابن الهيثم هى الإطار المرجعى للعالم.

كان العرب هم المركز، وأوربا هى الأطراف. كان الإسلام هو المبدع، وأوربا هى الناقلة والمستهلكة. وكان الإعلام فى يد المسلمين. فتحولت الحضارة إلى قوة. وظل الأمر كذلك وحتى خلال الحروب الصليبية وبعدها. فقد تعلم الأوربيون من خلال الاتصال المباشر العلم والحضارة. أتوا لاحتلال أراضى الإسلام عنوة وفى مقدمتها بين المقدس بالسلاح. وعادوا حاملين لواء العلم والحضارة، مما ساعدهم ذلك فيما بعد على التغير وبداية العصور الحديثة اعتمادا على العقل والعلم.

وفى العصر الحديث، نهضت أوربا بداية بالإصلاح الدينى فى القرن الخامس عشر. وكان لوثر يريد الإصلاح على الطريقة الإسلامية، إصلاح المسيحية بلا كنيسة وكهنوت وسلطة وتوسط بين الإنسان والله، مؤكدا على حرية التفسير، وعلى أن الكتاب وحده مصدر الإيمان وليس آباء الكنيسة. وتعلم اللغة العربية ليعرف الإسلام من مصدره الأول. واستمر الأمر كذلك فى عصر النهضة فى القرن السادس عشر تأكيدا على قيمة الاجتهاد ورفضا للتقليد.

ونشأ النقد التاريخى للكتب المقدسة على منوال علم مصطلح الحديث للتحقق من صحة الروايات وتطبيق شروط التواتر التى وضعها علماء الحديث والأصول. وأثبت تحريف الكتب المقدسة، وتغيير أقوال الأنبياء. وأصبحت الحضارة الأوربية الحديثة تقوم على العقل والعلم وحقوق الإنسان، والحرية والعدالة والمساواة. واكتشفوا دين الفطرة، الدين الطبيعى، بعيدا عن دين الأحبار والرهبان، مقتربين من نموذج الحضارة الإسلامية فى عصرها الذهبى.

ومنذ القرن الماضى وإبان نضهتنا المعاصرة واضعين حداً لقرون التوقف بعد ابن خلدون وعصر الشروح والملخصات إبان الحكم العثمانى بدأت الترجمة من الغرب إلى الإسلام منذ القرن التاسع عشر، منذ إرسال محمد على البعثات التعليمية وعودتها لنقل أهم المؤلفات فى الفنون والعلوم والصناعات والآداب. وحدث ذلك فى بر مصر وفى بر الشام. وأصبحت أفكار التنوير ومبادئ الثورة الفرنسية جزءا من الثقافة العامة. وانتشرت ألفاظ الحرية والإخاء والمساواة والعدالة الاجتماعية والعقد الاجتماعى والتقدم والطبيعة وحقوق الإنسان تؤثر فى الثقافة العربية المعاصرة.

ونشأ من بيننا الليبراليون والماركسيون والوجوديون والظاهراتيون والبنيويون والعقلانيون والتجريبيون والوضعيون والرومانسيون العرب. وأصبحت الثقافة العربية فى أحد جوانبها امتدادا للتيارات والمذاهب الغربية باسم التنوير والنهضة العربية. وأصبح كل مدافع عن العقل ديكارتيا بالضرورة، وكل قائل بالعدالة الاجتماعية ماركسيا بالضرورة، وكل منبه على أهمية العلم وحسن استعمال اللغة تجريبيا وضعيا بالضرورة.

أصبح المذهب الغربى هو المقياس والإطار المرجعى لكل شئ خارجه. أصبح الغرب هو المركز الجديد بعد أن كان محيطا للإسلام. وأصبح الإسلام محيطا للمركز الجديد بعد أن كان مركزا للغرب.

وقد ساعد الاستعمار الحديث على هذا التحول من المركز إلى المحيط فى الإسلام، ومن المحيط إلى المركز فى الغرب. فالحضارة أحد مظاهر القوة، وتنتشر

بانتشار القوة ومراكز الإعلام. وذاعت المذاهب والتيارات الغربية من خلال مراكز الثقافة الأجنبية والترجمة وأقسام الحضارة فى الجامعات والإعلام. وأصبحت الحضارة الغربية هى الحضارة العالمية، والغرب هو نموذج الحداثة.

وبعد التحرر من الاستعمار فى منتصف هذا القرن أو بعده بقليل لم ينشأ تحرر مواز على المستوى الثقافى. فأصبحت الدول العربية حديثا مستقلة سياسيا وهامشية ثقافيا وحضاريا. وظل الغرب هو الإطار المرجعى الذى يُقاس عليه كل الانتاج الثقافى العربى ابتداء من ذيوع المذاهب الغربية كما هى أو بعد قراءتها عربيا مثل الشخصانية الإسلامية، والوجودية العربية. ومازال كل إبداع المحيط يحال إلى أثر المركز. وإذا أبدع أحد الكتاب العرب مثل نجيب محفوظ فإن المركز هو الذى يعطيه شهادة الإبداع، جائزة نوبل، بمواصفات الأدب العالمى وهو أدب المركز.

وكما كان الإسلام فى عصره الذهبى الأول هو المركز والغرب فى العصر الوسيط هو المحيط بناء على ميزان القوى الأول ثم أصبح الإسلام الآن بعد ابن خلدون وحتى فجر النهضة العربية الحديثة هو المحيط والغرب فى عصوره الحديثة هو المركز تعبيرا عن ميزان القوى الثانى فإن التحدى الآن فى المستقبل هو من المركز ومن المحيط؟ ما هو ميزان القوى فى المستقبل؟

وإذا كان بعض فلاسفة الغرب يتنبؤون بنهاية العصور الحديثة. فيتحدث اشبنجلر عن أفول الغرب، وشيلر عن قلب القيم، وبرجسون عن الحضارة المادية الحديثة التى تصنع آلهة، وتوينبى عن محاكمة الغرب، وهوسرل عن ضياع الإحساس بالحياة وأزمة العلوم الأوربية، وإذا كان العرب يتحدثون منذ الجيل الماضى عن فجر النهضة العربية، وفى هذا القرن عن عصر التحرر من الاستعمار، وفى هذا الجيل عن الصحوة الإسلامية فهل يدل ذلك على تغير جديد فى ميزان القوى بين الإسلام والغرب؟ هل نحن على أعتاب فترة تاريخية ثالثة تتعدد فيها المراكز وتتفاعل فيما بينها أم أننا مازلنا فى جدل السيد والبعد الذى تمارسه الولايات المتحدة الأمريكية باتخاذها الإسلام عدوا لها بديلا عن الشيوعية، تحاصر وتهدد باسم مواجهة الإرهاب؟ فماذا يقول العرب؟

٨- العرب والشرق

كثر الحديث عن العرب والشرق هذه الأيام، كبوة العرب وانقلابهم على أنفسهم من الخمسينات والستينات إلى السبعينات والثمانينات حتى التسعينات، ونضهة الشرق منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى نهاية هذا القرن واستعدادا للقرن الواحد والعشرين.

ويظهر فى هذا الخطاب نوع من الإعجاب بالشرق وبتجربته النهضوية، وفى نفس الوقت حسرة على النفس، وحزن على الماضى القريب عندما سبقت مصر فى عصر محمد على نهضة اليابان الحديثة فى عصر ميجى. بل إن الإمبراطور اليابانى قد أرسل رسلا إلى مصر محمد على لنقل التجربة المصرية إلى اليابان فى عصر انفتاحها الجديد فى أوائل هذا القرن. فأين مصر الآن من اليابان بعد قرن أو يزيد؟

كما ظهر الإعجاب بالشرق فى الفكر العربى المعاصر. فكثير من الصحف العربية كانت تعنون نفسها "الشرق"، و "صوت الشرق"، ولقب أم كلثوم "كوكب الشرق". وتصدح أم كلثوم بشعر حافظ إبراهيم فى قصيدة "مصر تتحدث عن نفسها"

أنا تاج العلاء فى مفرق الشر ∴ ق ودراته فرائط عقدى

ويتحدث الأفغانى عن الشرق والشرقيين، ويعجب بنهضة اليابان وروحه القومى. ويتغزل حافظ إبراهيم فى "غادة اليابان". ويدعو عبد الله النديم فى ثورته ضد الاستعمار البريطانى إلى وحدة الشرق والشرقيين.

وبعد الثورة المصرية والعربية الحديثة بدأ الانفتاح على الشرق من جديد، أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتى من أجل تدعيم حركات التحرر الوطنى من الاستعمار الغربى، وتوريد السلاح، والمساهمة فى خطط التنمية والتى كان أهمها

البيان ١٩/١٢/١٩٩٦.

بناء السد العالى فى مصـر. وبلغت قمـة التعـاون بيـن العـرب والشـرق فـى مؤتمـر باندونج فى ١٩٥٥ حين اجتمـع زعمـاء الشـرق، شـوين لاى، نهـرو، نـاصـر، تيتـو، سوكارنو وغيرهم مـن أجـل التعبـير عـن وعـى العـالم الثـالث المنـاهض للاسـتعمار والمؤيد لنضال الشعوب، والمتمسك بسياسة الحياد الإيجابى فى الصراع بين روسـيا والولايات المتحدة الأمريكية، وتوريد الأسـلحة التشـيكية إلـى مصـر فـى نفس العـام لردع العدوان الصهيونى على غزة، ثم إعادة تسليح الجيش المصرى بعد هزيمة حزيـران - يونيو ١٩٦٧، وتسليح الجيوش العربية خاصـة فـى سـوريا والعـراق واليمن والجزائر.

ومازال حتى الآن، يثير الشرق الإعجاب بالنفس، فنحن جزء منه، وهو جزء منا بالرغم من التمايز بين قطاعاته المختلفة. هناك الصين واليابان اللذان يكوّنان معا أكثر من ربع المعمورة، عملاق الصناعـة وعمـلاق البشـر. وهنـاك تـايوان، وهونـج كونج، وكوريا، وسنغافورة، وتايلاند، ومعظمها قليلة السكان باستثناء كوريا وتـايلاند وعظيمة الإنتاج. فسنغافورة التـى لا يتجـاوز عـدد سـكانها الثلاثـة ملايين أى واحـد على عشرين من سكان مصر يبلغ إنتاجها القومى مـايزيد علـى الألـف مليـار دولار أى أربعين مرة أكثر من الإنتاج القومـى لمصـر! وهنـاك أندونيسيا والملايـو، أكبر تجمع سكانى أسيوى إسـلامى، يصـل معـدل التنميـة فيهمـا ٧٪، ٩٪ ضعـف معـدل التنميـة فـى مصـر أو ثلاثـة أضعـاف. وهناك أخيرا إيران وأواسط آسيا بما فـى ذلك الجمهوريات الإسلامية بما لديها من رصيد زراعى وصنـاعى، ومـن طاقـة نفطية ونووية.

ومع ذلك، نظراً لقرب مصر والمغرب العربى والشام، وهى مراكز النهضـة العربية منذ القرن الماضى، من الغرب فقد قوى الجناح الغربى للأمـة العربيـة علـى حساب الجناح الشرقى. ونظراً لأن الاستعمار أتـى مـن الغـرب وليـس مـن الشـرق، باستثناء استعمار روسيا للجمهوريات الإسلامية فى أواسط آسيا، بخـارى، وطشـقند، وسمرقند، وفرغانة، وباكو، فقد تم الاتصال بـه أثنـاء حركـة التحـرر الوطنـى. ولمـا

بدأت تجارب التحديث فى العالم العربى بعد الاستقلال، بدأت أيضا بالتعاون مع الغرب، فرنسا، وانجلترا، وألمانيا، وإيطاليا، وأسبانيا. وبعد انحسار موجة الاستقلال لصالح التبعية بدأ التعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية وريثة الغرب الحديث وبعد أفول نجم الغرب القديم.

والوطن العربى بأهمية المكان، والتوسط الجغرافى بين الشرق والغرب، هو ميزان الثقل بين الجهتين، لا يستطيع أن يميل غربا أو أن يميل شرقا حتى لا ترجح إحدى الكفتين على الأخرى. وهذا موضع فريد للوطن العربى الذى يمتد عبر شبه الجزيرة العربية والعراق والشام إلى آسيا، وعبر المغرب العربى إلى أوربا، وعبر مصر إلى أفريقيا، ومن خلال الهجرات اللبنانية إلى أمريكا الجنوبية، ومن خلال هجرات العرب الحديثة وظهور أمة الإسلام فى أمريكا إلى أمريكا الشمالية. فالعرب أمة متوسطة جغرافيا بين الشرق والغرب، وتاريخيا بين الحضارات القديمة فى الهند والصين وفارس واليونان والرومان إلى الحضارة الأوربية الحديثة، وسياسيا بين الشيوعية والرأسمالية. هكذا وصفها القرآن الكريم فى عديد من الآيات ﴿وكذلك جعلنا كم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ (٢ : ١٤٣)، وبالصورة الفنية ﴿لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضئ ولم تمسسه نار﴾ (٢٤ : ٣٥).

وهنا يبرز الدور الرائد للخليج. فهو جغرافيا، وسكانيا، واقتصاديا، وتاريخيا حلقة الاتصال بين الشرق والغرب، وأكثر المناطق العربية امتدادا نحو الشرق. يمثل السكان الأسيويون فى بعض دوله بين النصف وثلاثة أرباع السكان. يقومون بالعمالة والتجارة، يتعربون من خلال اتصالهم بالعرب، وتنتشر لغات آسيا من خلالهم إلى العرب. وقد كانت عُمان من أوائل الدول التى ركبت البحار استكشافا لجنوب شرق آسيا قبل قدوم الرجل الأبيض.

وتجارة العبور مزدهرة بالخليج، فى اقتصاد حر مفتوح بلا حواجز جمركية ورسوم كما هو الحال فى باقى الدول العربية. ويصدر النفط إلى آسيا خاصة

اليابان. وهى أسواق للمنتجات الصناعية الشرقية من اليابان وتايوان وسنغافورة، وهونج كونج، وكوريا، والصين. وهو نموذج التكامل بين المسلمين العرب والعجم، استمراراً للأمة الإسلامية وتحت راية التوحيد الذى يجُبّ العرق واللغة والقوم. يخطب وده الجميع فى الشرق والغرب لاستثمار فائض أموال النفط، وتصدر العمالة الأجنبية، وتصريف المنتجات الصناعية. تأتيه العمالة من الشرق والغرب، من مصر وفلسطين وسوريا ولبنان والسودان واليمن. كما تأتيه من الهند وباكستان وبانجلادش والفلبين. والآن تزدهر التجارة الحرة مع الروس كأفراد كما كان الحال فى المجتمع التجارى القديم.

يستطيع الخليج أن يكون بوتقة تفاعل بين الشرق والغرب، بين آسيا وأوربا، وبين الشمال والجنوب براً، وبآسيا وأفريقيا بحرا، من أجل خلق منطقة حضارية جديدة، تجمع بين الماضى والحاضر، بين الحضارة والتجارة. ثم تتجاوز الحاضر إلى مستقبل أفضل عن طريق التحول من اقتصاد الخدمات إلى اقتصاد الإنتاج، وأن تكون شريكا صناعيا للنمور الآسيوية. فالعمالة أسيوية، ورؤوس الأموال خليجية، والمهارة عربية، فى وقت تقدم المهارة الإسرائيلية نفسها كبديل عن المهارة العربية، وتحول العرب إلى مجرد عمالة. وتلك مهمة الفكر العربى فى الخليج، فى جامعاته ومراكز أبحاثه ومجمعاته الثقافية وصحفه، أن يكون حاملا لمشروع نهضوى خليجى عربى جديد، يجدد به المشروع القومى العربى، ويعطيه ركيزة مادية وطيدة، وتقلل من شعاراته المبدئية القديمة التى ساعدت على بلورة الوعى القومى العربى فى الخمسينات والستينات إلى واقع عربى جديد فى السبعينات والثمانينات والتسعينات ونحن على مشارف قرن جديد، نحن فى بداية قرن، والعالم فى نهاية قرن.

إن اتجاه العرب شرقا يقلل من الاعتماد المتزايد على الغرب، وإيقاف ظاهرة "التغريب" أى اعتبار الغرب نموذجا فريدا ووحيدا لكل الشعوب، وتوحيده مع الثقافة العالمية ومع الحداثة والعصرية. فالعالم العربى بمثابة القلب. له جناحان، واحد فى

الغرب، وواحد فى الشرق. وطالما أن الجناح الغربى أقوى من الجناح الشرقى، يتجه الطائر غربا كما هو الحال فى السياسات العربية الحالية. فإذا ماتساوى الجناحان فى القوة يستطيع الطائر أن يحفظ توازنه بين الشرق والغرب دون أن يتجه غربا فترجح كفة الغرب على الشرق أو أن يتجه شرقا فترجح كفة الشرق على الغرب. وإذا كانت رأس الطائر فى الشمال، وذيله فى الجنوب، الأول فى الحداثة والثانى فى التراث، الأول نحو المستقبل، والثانى فى عمق الماضى أصبح الطائر العربى راسخا فى الجغرافيا والتاريخ على حد سواء.

إن ميزة الشرق على الغرب فى الوجدان العربى المعاصر هو غياب الآثار المتبقية من الاستعمار وغياب التاريخ الاستعمارى للشرق فى الوجدان العربى باستثناء الجمهوريات الإسلامية فى أواسط آسيا من أثر التوسع الروسى فى العهدين القيصرى والشيوعى. لايوجد عائق نفسى أو تاريخى بين العرب والشرق. بل على العكس هناك أواصر قرابة ورحم. فقد انتشر الإسلام شرقا قدر انتشاره غربا، إلى فارس والهند، وأواسط آسيا حتى الصين والملايو، وأندونيسيا، والفلبين، قدر انتشاره إلى مصر وشمال أفريقيا والأندلس وجزر البحر الأبيض المتوسط. فهناك تاريخ ثقافى ودينى وحضارى مشترك. وتظهر تلك التجارب المشتركة فى اللغة والعادات والتقاليد وأساليب الحياة بين العرب، خاصة عرب الخليج، وبين الآسيويين. ويخلو الشرق من العنصرية والتميز العنصرى الذى يقوم على العرق ولون البشرة، والأنانية، والسيطرة، ومركزية العالم مقارنة بتاريخ الغرب. ولا توجد حركة عربية معادية للشرق كما هو الحال فى الحركات المناهضة للغرب عند الإسلاميين والماركسيين والقوميين. فالشرق مجال حيوى للعرب، أدركته ألمانيا سابقا فى "الإتجاه نحو الشرق" كما صاغته فلسفات "ريح الشرق" عند جوزيف نيدهام باكتشافه الصين، وأنور عبد الملك باكتشافه اليابان ثم الصين، وأخيرا مارتن برنال باكتشافه دور مصر والحضارة الأفريقية الآسيوية فى تكوين الحضارة الأوربية ابتداء من اليونان القديم.

إن اتجاه العرب شرقا يساعد على حل مشاكل العرب. وإذا كان الاتحاد السوفيتى ومنظومة الدول الاشتراكية قد ساعدت العرب فى الخمسينات والستينات أثناء حركة التحرر الوطنى وفى خطط التنمية الأولى والثانية، وإذا كان الغرب قد حاول القيام بذلك فى السبعينات حتى التسعينات فىمرحلة التبعية له فإن مجموع دول الشرق تستطيع أن تكون حليفا جديدا للعرب فى المستقبل القريب. وقد بدأ العرب قرنهم الخامس عشر منذ عقدين من الزمان والعالم من حولهم يستعد لبداية القرن الواحد والعشرين.

يستطيع الشرق أن يساعد العرب على حل مشكلة الغذاء فى الوطن العربى. فمازال ٧٠٪ من غذائه يأتى من الخارج. ومن لا يطعم نفسه يظل عبدا للقمة العيش. وفرة المياه واتساع الأراضى وامتداد رقعة الشواطئ والبحيرات تجعل الوطن العربى قادرا على الاكتفاء الذاتى بالقمح وبدائله من الحبوب وبالثروة السمكية كما تفعل الصين واليابان. كما يستطيع مساعدة العرب فى تجربة التصنيع الجديدة بعد التجربة الأولى فى مرحلة التحرر الوطنى، صناعة البتروكيماويات فى الخليج، وصناعة المنسوجات، والعربات، والإلكترونيات، وأن ينتج العرب ما يستهلكون ولو بداية بالتجميع الصناعى كما تفعل اليابان مع أوربا وأمريكا. كما يمكن للعرب بداية الاكتفاء الذاتى بالسلاح بدلا من أن تذهب مدخراتهم فى شرائه من الغرب أو الشرق. يستطيع الشرق أن يوفر للعرب الخبرة العالمية الضرورية للتصنيع الآلى الحديث، ولربط الوطن العربى بأكبر شبكة من المواصلات الأرضية والجوية، السلكية واللاسلكية. كما يستطيع الشرق الاشتراك الفعلى فى العمليات التنموية الشاملة حتى يصبح العالم العربى مستقلا بذاته فى الطعام والدفاع بدلا من إبقائه سوقا لإنتاج الآخرين، وطاقة لتصنيع الآخرين. على هذا النحو يستمر تاريخ العرب فى الاتجاه شرقا مع حاضرهم. وكما نجح العرب فى الماضى فى تكوين أمة تجمع بين الشرق والغرب، فقد ينجحون فى إعادة بنائها كميزان التعادل بين الشرق والغرب.